جامعة الأزهر
كلية البنات الأزهرية
بطيبة

المجلة العلمية

حديث المسيح عن نفسه في الأناجيل

(عرض ونقد)

إعداد

د / محمد عبد الحكيم عبد المجيد

ملخص البحث

نقلت الأناجيل كثيرًا مِن أحوال المسيح على لسانه هو لا نقلًا عن غيره، وقد أضفى النّصارى هالةً مِن القداسةِ على أقواله المُتعلقة بالبنوة والأبوة، بينما غضّوا الطرف عن سائر أقواله الأخرى المُبيّنة لطبيعته والكاشفة لحقيقة بعثته –عليه السلام–، وقد كان مِن أهم ما ركّز عليه المسيح عند حديثه في الأناجيل عن دعوته أن وضّح أنه نبيٌ ورسول أرسله خالقه ليُعلّم بني إسرائيل طريق الله – عز وجل– ويهديهم إليه، ويقارن نفسه دومًا بالأنبياء، ويُظهر أنّه عبد يتعبد لربه، وأنه يحفظ وصايا الله وأنّه ما جاء لينقضها بل ليُتمّها ويُكمّلها، وأنه في طريق دعوته كان يُربي تلاميذ لا أنبياء، وأنه كان يشفي المرضى بإذن الله لا مِن تلقاء نفسه.

كما نص المسيح في الأناجيل على أنه إنسان وابن إنسان ولم يقل أنّ به شيئًا مِن الألوهية، ولم يتحدث عن "أقنوم" أو"لاهوت" أو "ناسوت" أو غيرها مما تأولته النصارى، وقد قطع المسيح في الأناجيل أنه لا يعلم الغيب وإن أتى ببعض المعجزات، بل كان يحرص عند إتيانه بالمعجزات أن يؤكد مع كل مُعجزةٍ أنّه مجرد إنسان وابن إنسان، وينفي عن نفسه عِلم قيام الساعة، وكان ينصّ في الأناجيل على أنه بشر يعتريه ما يعتري غيره مِن أحوال البشر مِن نومٍ وجوعٍ وعطشٍ وأكلٍ وقلقٍ واضطرابٍ وأنّه كان يُوحَى إليه ويمشي ويمرض ويتكلم، بل وكان كلامه وأفعاله يُصيبان المخاطَبين دومًا بالدهشةِ والتعجبِ، ولو كان يدّعي الألوهية لنفسه أو ينظر إليه معاصروه على أنّه جزء مِن إله لما وقع منهم العجب والدهشة، وقد كان مِن أدق ما ورد في الأناجيل على لسان المسيح كلامه عن الأبوة والبنوة

والذي أوّله النصارى بأنّه حديث عن ألوهيته وأقنوميته، وبالتالي شيّدوا أركان ديانتهم على أساس هذه التأويلات وتلك الإشارات، تاركين صريح الكلام إلى ما به غموضٌ، مما حدى بالنصرانية إلى وجود الخلافات العقدية والجوهرية بينهم، وهذا واضح من كثرة مجامعهم.

Abstract

The gospels frequently quoted the conditions of the messiah (the Christ) in his tongue, not others. Christians gave an aura of holiness to the statement regarding prophecy and paternity while the other side turned ablind eye to all other statements based on its nature and revealing the truth of his mission (peace upon him). It was one of the most important things that the Christ focused on when speaking in the gospels about his call that he clarify that he is aprophet and amessenger of the creator to teach the children of Isael, the path god almighty and guide them to keep the orders of allah and that what came to invalidate it, but to complete it, and that in the way of his vocation, disciples were healed by gods will, not by themselves as the Christ stated in the gospels that he is a human being and a son of ahuman being, he did not say that he had any divinity nor did he speak about the theology or the other what the Christians claimed the Christ confirmed in the gospels that he did not know the unseen and came with some miracles, but he was keen on miracles to confirm with every miracle. He is just a human being and the son of a human being , and he denies himself the science of the establishment of the hour, and he states in the gospels that he is a human being who suffers from other human conditions such as sleep. Hunger, thirst, eating anxiety and disturbance, and that he was suggesting to him, walking, getting sick, speaking and even his speeches and actions were always correct and surprised even in he diety clams to himself or looks at me.

His contemp or aries said that he is part of a god when the

worker and surprise occurred among them it was one of the most occurate words in the gospels according to the words of Christ on the authority of father hood and prophecy it has ambiguity, which limits Christianity to the existence of fundamental and contractval differences between them . this is clear from the multiplicity of their councils.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق فسوى وقدّر فهدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الرسول المصطفى والنبي المجتبى، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلا شك أن إعمال الفكر في عقائد المخالفين وشرائعهم وما يقدسونه من كتب وغيرها يقتضي من المفكر في هذه الأمور والباحث فيها مزيداً من الدقة والعناية والحرص والانتباه عند تدوين كل حرفٍ في هذا الشأن.

ولقد استولى تأليه المسيح–عليه السلام–على المساحة الأكبر في الفكر النصرانيّ منذ بدأ دعوته– عليه السلام– وحتى العصر الحديث، وتشكك الكثيرون في طبيعته حتى التلاميذ أنفسهم، كما أصبح هذا المعتقد هو السائد في النصرانية ولأجله طُوّعت النصوص وعُقدَت المؤتمرات وحُرم المخالفون وسُفكت الدماء.

والمتتبع للأناجيل الأربعة التي اتفق عليها سائر النصارى يجد أنها احتوت على قدرٍ كبيرٍ من صفات المسيح–عليه السلام– بل إنها تكاد تكون مجرد تأريخ لحياته–عليه السلام– بدءًا من مولده مروراً بهجرته إلى مصر ثم عودته إلى الناصرة ثّم تعميده على يد يوحنا المعمدان(يحيى بن زكريا– عليه السلام–) وانتهاءً بالصلب والقيامة المزعومَين كما سنرى.

وعلى الرغم من هذه السيرة المتكررة في الأناجيل الأربعة فإن المسيح –عليه السلام– نادراً ما كان يتحدث عن نفسه وعن شخصيته، وإنما كان حديثه مُركزًا على دعوته وبيان حقيقة رسالته، وقد وضّح –عليه السلام– بما لا يدع

مجالاً للشك أنه إنسان وابن إنسان وأنه بَشَر وأنه رسول من الله وأنه نبي ومعلم وأنه هاد للعصاة من بني إسرائيل، ومع هذا الوضوح والبيان فقد وقع اللبس عند النصارى في رسالة المسيح ونبوته وبنوته–عليه السلام–، ويأتي هذا البحث ليقف وقفة نظرٍ وتأمّل مع كلام المسيح –عليه السلام– عن نفسه في الأناجيل، محاولاً الوصول إلى أجوبةٍ صريحةٍ عن أسئلةٍ شائكةٍ وخطيرةٍ مِن أهمها: هل صرّح المسيح –عليه السلام– في الأناجيل بأنه ابن الله؟ وإن كان قد صرّح فماذا قصد بهذه البنوة؟ وهل أشار المسيح إلى أن هذه البنوة تقتضي شيئاً زائداً فوق البشرية والرسالة؟ وهل كان المسيح ينظر إلى نفسه على أنه شخص غير عاديّ وأن مقامه أعلى مِن مقام البشرية؟ أم أن كل هذا الإطراء كان من بنات أفكار النصارى على مر العصور وأن المسيح منه براء؟.

أسباب اختيار الموضوع.

وقد دفعتني إلى هذه الدراسة عدة أسبابٍ كان مِن أهمها:

١- إعراض المسيح–عليه السلام– في الأناجيل عن المبالغة في شخصه واكتفائه بالوقوف عند مقام البشرية والنبوة.

٢- إصرار الكثير من النصارى على صرف البنوة المنصوص عليها في الأناجيل إلى معناها الحرفي الذي يعني تولد فرعٍ عن أصل.

٣- الوقوف مع أقوال المسيح–عليه السلام– في الأناجيل باعتبارها أقوالاً مجردة في إطارها الذي ذُكِرت فيه دون زيادةٍ أو نقصانٍ أو تأويلٍ أو تدخل.

٤- تفصيل المسيح-عليه السلام- لطبيعة دعوته وما بُعِث لأجله، وهو ما أغفله النصارى عند تناولهم لكلامه -عليه السلام- في الأناجيل.

٥- وقوف النصارى عند بعض النصوص القليلة من كلام المسيح -عليه السلام- وصرفها إلى غير وجهتها وتحميلها ما لا تحتمل، والتغاضي عن كلماتٍ صريحةٍ للمسيح -عليه السلام- في الأناجيل تدلل على بشريته وحقيقة رسالته.

٦- عدم إفراد أحاديث المسيح -عليه السلام- في الأناجيل ببحثٍ يُحصي هذه الأحاديث ويعني بها ويلفت الأنظار إليها ويبين حقيقتها بعيداً عن الأهواء.

منهج البحث:

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج التحليليّ، حيث يقف الباحث على كلام المسيح-عليه السلام- في الأناجيل ويعزوها إلى مواضعها ثمّ يُحلل النّص تحليلاً علمياً دقيقاً ناقلاً لآراء علماء النصارى في هذه النصوص مُضيفاً إليها آراء غيرهم، وقد يلجأ الباحث إلى مناهج أخرى غير المنهج الرئيس الذي هو المنهج التحليليّ كالمنهج النقديّ والتاريخي وغيرهما كلما تطلّبت طبيعة البحث ذلك.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمةٍ وثلاثة مباحث وخاتمةٍ جاءت على النحو التالي:

أولاً: المقدمة. وتشتمل على ما يلي:

١- أسباب اختيار الموضوع.

٢- منهج البحث.

٣- خطة البحث.

ثانياً: المباحث الثلاثة. وهي:

المبحث الأول: حديث المسيح -عليه السلام- في الأناجيل عن دعوته.

ويحتوي على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المسيح يُقرر في الأناجيل أنه نبيٌ ورسول ومُعلّم وهاد.

المطلب الثاني: المسيح يُقارِن نفسه في الأناجيل بالأنبياء، ويتعبد لربه.

المطلب الثالث: المسيح يعلن في الأناجيل أنه يحفظ وصايا الله ويُنفذها وأنه يُربي تلاميذ لا أنبياء وأنه يشفي المرضى بإذن الله- عز وجل-.

المبحث الثاني: حديث المسيح -عليه السلام- في الأناجيل عن طبيعته.

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المسيح يعلن في الأناجيل أنه إنسان وابن إنسان.

المطلب الثاني: المسيح يُقرر في الأناجيل أنه لا يعلم الغيب.

المطلب الثالث: المسيح يبيّن في الأناجيل أنه بشر يعتريه ما يعتري غيره مِن أحوال البشر.

المبحث الثالث: البنوة في النصرانية وحديث المسيح عنها في الأناجيل.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البنوة عند النصارى.

المطلب الثاني: حقيقة البنوة في الأناجيل ومعناها.

المطلب الثالث: موقف المسيح في الأناجيل من الأبوة والبنوة.

ثالثاً: الخاتمة. وتشتمل على الآتي:

١- نتائج البحث

٢- المراجع.

٣- الفهرس.

المبحث الأول

حديث المسيح -عليه السلام- في الأناجيل عن دعوته.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المسيح يُقرر في الأناجيل أنه نبيٌ ورسول ومُعلّم وهاد.

المطلب الثاني: المسيح يُقارِن نفسه في الأناجيل بالأنبياء، ويتعبد لربه

المطلب الثالث: المسيح يعلن في الأناجيل أنه يحفظ وصايا الله ويُنفذها وأنه يُربي تلاميذ لا أنبياء وأنه يشفي المرضى بإذن الله– عز وجل–.

تمهيد

ذكرت الأناجيل بعض أحاديث المسيح– عليه السلام– عن نفسه، سواء أكانت هذه الأحاديث تتناول طبيعته وصفاته، أو تتناول حقيقة دعوته، حيث تحدّث– عليه السلام– في الأناجيل عن طبيعة بعثته، وعن الهدف الذي أرسله الله– عز وجل– لأجله.

والمُتتبع لهذه النصوص في الأناجيل الأربعة يجد المسيح– عليه السلام– وقد بيّن فيها أنّ الله– سبحانه وتعالى– قد اختاره لأجل مهمةٍ سامية وشرفٍ نفيسٍ لا يُضاهيه شرف، ألا وهو شرف النبوة.

والمتتبع أيضاً لهذه النصوص يجد أن المسيح – عليه السلام– بيّن هذه المهمة للجميع ووضحها حتى لا يكون ثمة لبسٌ عند أتباعه والمؤمنين به، فبيّن – عليه السلام– في غير موضعٍ في الأناجيل أنه نبي مِن الأنبياء، وقد كانت فكرة بني

إسرائيل عن الأنبياء والنبوة فكرةً واضحةً ثابتةً، بل كانوا أكثر العالمين الذين أرسل الله – عز وجل– فيهم أنبياء نظراً لشدة كفرهم وعنادهم وعصيانهم، فكانت فكرة النبوة والأنبياء دارجةً عندهم، ولم يسبق لهم أن بالغوا في نبي مِن الأنبياء حتى وصلوا به إلى درجة الألوهية، ولعل هذا ما دفع المسيح– عليه السلام– إلى أن يكتفي ببعض النصوص التي وضّح مِن خلالها أنه نبي ورسول ومُعلّم وهاد إلى طريق رب العالمين– جل وعلا– والتي قارن فيها نفسه بمَن سبقه مِن الأنبياء، لا بمَلَكٍ مِن الملائكة ولا بأي شيءٍ زائدٍ عن مقام البشرية، والتي وضّح أيضاً من خلالها أنه مجرد حافظٍ لوصايا الله – عز وجل– وأنه رسولٌ يُربي تلاميذ لا أنبياء، وأنه يشفي المرضى ويأتي بسائر المعجزات بإذن الله – عز وجل– لا مِن عند نفسه ولا بقدرته، وهذا ما ذكرته الأناجيل مِن كلام المسيح – عليه السلام– عن طبيعة دعوته، وهذا ما سيبينه هذا المبحث– بمشيئة الله تعالى–.

المطلب الأول
المسيح يُقرر في الأناجيل أنه نبيٌ ورسول ومُعلّم وهاد.

ذكرت الأناجيل عدداً مِن أنبياء بني إسرائيل كما استفاضت أسفار اليهود في ذكر هؤلاء الأنبياء وفصّلت حياتهم وبيّنت طبيعة دعواتهم وخلّدت جانباً مِن أعمالهم، وعلى ضوء ذلك البيان وكثرة أنبياء بني إسرائيل كانت فكرة النبوة مُستقرة عندهم ولم يكن وجود المسيح عيسى بن مريم رسول الله شيئاً مُستهجناً ولا مُستغرباً، غير أن معجزة ميلاد المسيح– عليه السلام– وما جاء به – عليه السلام– مِن مُعجزاتٍ أيقظت في بني إسرائيل عالَم الروح وقد طغى عليهم الإيمان بالمادة وبكل ما هو محسوس دون الغيبيات، وقد وضّح – عليه السلام– لبني إسرائيل لا سيما تلاميذه وأتباعه أنه جاء بنوعٍ مُختلفٍ مِن المعجزات وبلونٍ جديدٍ مِن الآيات البينات التي تشهد أنه جاء مِن عند الله– عز وجل–، وقد أكّد في أحاديثه عن طبيعة بعثته ورسالته على هذا الأمر.

فما أن استشعر المسيح–عليه السلام– إطراء تلاميذه وأتباعه له، وسوء فهمهم أحياناً لطبيعة بعثته– لا سيما عند وقوع معجزةٍ مِن المعجزات– حتى أخذ يُبين للجميع أنه مجرد نبي مِن الأنبياء ورسول مِن رُسل الله– عز وجل–، حيث جاء في إنجيل متى:(لا تظنوا أني جئتُ لأنقض النّاموس أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقض بل لأكمّل)[1]، فالمسيح يُصرّح بلا أدنى شبهةٍ أنه جاء ليُكمّل طريق النبوة

(١) مت ٥: ١٧.

والأنبياء، وينقل نفس الإنجيل على لسان المسيح قوله لتلاميذه:(مَن يقبلكم يقبلني، ومَن يقبلني يقبل الذي أرسلني. مَن يقبل نبيّاً باسم نبي فأجر نبيّ يأخذ، ومَن يقبل بارّاً باسم بار فأجر بارّ يأخذ)[١]، وجاء أيضاً في إنجيل متى عن أهل الناصرة:(فكانوا يعثرون به. وأما يسوع فقال لهم:" ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته)[٢]، وما زاد المسيح– عليه السلام– عن وصف نفسه بالنبوة بأي شيءٍ آخر، وقد تكرر هذا النّص في بقية الأناجيل وبنفس النّص[٣]، وكذلك جاء في إنجيل متى أيضاً على لسان المسيح– عليه السلام– مخاطباً تلاميذه:(فأجاب وقال: "لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة")[٤]، فالمسيح إذاً أُرسِل إلى بني إسرائيل خاصّة ورفض أن تتعدى دعوته إلى غير بني إسرائيل بحسب النّص السابق، فقد أرسله الله – عز وجل– لأجل هداية أهل الضلال كما ذكر –عليه السلام–، ثم جاء في إنجيل مرقس على لسان المسيح– عليه السلام–:(مَن قَبِلَ واحداً مِن أولادٍ مثل هذا باسمي يقبلني، ومَن قبلني فليس يقبلني أنا بل الذي أرسلني)[٥]، وجاء أيضاً في إنجيل لوقا عن حديث المسيح مع أهل الجليل:(فقال لهم:" إنه ينبغي لي أن أُبشّر المدن الأُخر أيضاً بملكوت الله، لأني لهذا قد

(١) مت ١٠: ٤٠– ٤١.
(٢) مت ١٣: ٥٧.
(٣) راجع مر٦: ٤، و لو ٤: ٢٤،
(٤) مت ١٥: ٢٤.
(٥) مر ٩: ٣٧، وراجع أيضاً مت١٠: ٤٠– ٤١.

أُرسِلت")[١]، وهذه هي المهمة الحقيقية الواضحة والصريحة والبعيدة عن التأويلات والاحتمالات التي بنت عليها النصرانية أصولها وعقائدها وأفكارها، إنّ المهمة الواضحة وضوح الشمس إنما هي التبشير والإنذار، فما أُرسل –عليه السلام– إلا بشيراً ونذيراً، وهذا ما صرّح به –عليه السلام– بحسب نصّ إنجيل لوقا السابق "إنه ينبغي لي أن أُبشّر المدن الأخر"، وفي نفس الإنجيل أيضاً نصّ صريح على لسان المسيح– عليه السلام– بالنبوة فقط، يقول الإنجيل على لسان المسيح:(بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه، لأنه لا يُمكن أن يَهلِكَ نبيّ خارجاً عن أورشليم!)[٢].

بل وفي إنجيل يوحنا دليلٌ دامغٌ من كلام المسيح –عليه السلام– أن الله أرسله وأنه ليس إلا رسول مِن عند الله، يقول الإنجيل ناقلاً لحديث المسيح لتلامذته:(فقال لهم يسوع أيضاً:" سلامٌ لكم! كما أرسلني الآب أُرسلُكم أنا")[٣]، وجاء فيه أيضاً:(لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي)[٤] وهكذا تحدّث المسيح– عليه السلام– عن نفسه في الأناجيل على أنه رسول رب العالمين أرسله الله– جل وعلا– ليكمل به ما سبق مِن الرسالات، وأنه–عليه السلام– قد حدد بكل دقة موضوع رسالته والقوم الذين أُرسل إليهم والغاية مِن رسالته، فهو– عليه

(١) لو ٤: ٤٣.
(٢) لو ١٣: ٣٣.
(٣) يو ٢٠: ٢١.
(٤) يو ١٤: ١.

السلام- بشير إلى بني إسرائيل ليخرجهم من ضلالتهم إلى طريق الهدى والنور والحق، طريق رب العالمين.

كما وضّح -عليه السلام- في الأناجيل وهو يبين طبيعة رسالته ودعوته أنه مُعلّم وهادٍ للعصاة في عهده، حيث جاء في حديث المسيح مع تلامذته في إنجيل متى:(وأمّا أنتم فلا تُدعَوا سيدي، لأن مُعلمكم واحدٌ المسيح، وأنتم جميعاً إخوةٌ. ولا تدعوا لكم أبا على الأرض، لأن أباكم واحدٌ الذي في السماوات. ولا تُدعَوا مُعلمين، لأن مُعلمكم واحدٌ المسيح)[١]، وفي هذا النّص يضيف المسيح بياناً جديداً ومهمةً أخرى إلى مهامه التي وضحها مِن خلال النصوص السابقة، فبينما يرفض -عليه السلام- رفع أحدٍ مِن المخلوقات كائناً مَن كان إلى مرتبة الألوهية يرفض أيضاً -عليه السلام- أن يقبل أحد من تلامذته أن يُسمّى مُعلَماً لأن المعلّم الحقيقي والأوحد لبني إسرائيل في ذلك الزمان هو المسيح -عليه السلام-، وهو أيضاً هادٍ للخطاة والعُصاة بإذن ربه- جل وعلا- جاء في إنجيل مرقس عن المسيح:(ثمّ خرج أيضاً إلى البحر. وأتى إليه كُلُ الجمعِ فعلّمهم. وفيما هو مجتازٌ رأى لاوي بن حلفى جالساً عند مكان الجباية، فقال له:" اتبعني". فقام وتبعه. وفيما هو متكئ في بيته كان كثيرون مِن العشّارين والخطاة يتكئون مع يسوع وتلاميذه، لأنهم كانوا كثيرين وتبعوه. وأمّا الكتبة والفريسيون فلما رأوه يأكل مع العشّارين والخطاة، قالوا لتلاميذه:" ما باله يأكل ويشرب مع العشّارين والخطاة؟" فلمّا سمع يسوع

(١) مت ٢٣: ٨- ١٠.

قال لهم:"لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاةً إلى التوبة")[١]، ويوضح الإنجيل ذاته أنّ المسيح كان صاحب دعوةٍ وأنه- عليه السلام- كان مُخلِصاً في دعوته، يقول مرقس في إنجيله عن المسيح:(وفيما هو يمشي عند بحر الجليل أبصر سِمعان وأندراوُس أخاه يُلقيان شبكةً في البحر، فإنهما كانا صيّادَين فقال لهما يسوع:" هلُمّ ورائي فأجعلكما تصيران صيّادَي النّاس"فللوقت تركا شباكهما وتبعاه. ثمّ اجتاز مِن هناك قليلاً فرأى يعقوبَ بنَ زَبدِي ويوحنا أخاه،وهما في السفينة يُصلحان الشِّبَاك. فدعاهما للوقت. فتركا أباهما زَبدِي في السفينة مع الأجرى وذهبا وراءَه)[٢]، وقد ذكر متى في إنجيله واقعةً شبيهةً بهذه الواقعة مع اختلافٍ يسيرٍ في بيان مهمة المسيح- عليه السلام- والتي أُرسِل لأجلها، حيث يقول:(وفيما يسوع مجتازٌ مِن هناك، رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية، اسمه متّى. فقال له:" اتبعني". فقام وتبعه. وبينما هو متكئٌ في البيت، إذا عشّارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه. فلمّا نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه:" لماذا يأكل مُعلّمكم مع العشّارين والخطاة؟". فلما سمع يسوع قال لهم:" لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلموا ما هو: إنّي أريد رحمةً لا ذبيحةً، لأني لم آتِ لأدعوا أبراراً بل خطاةً إلى التوبة")[٣]، فالفريسيون يُخاطبون التلاميذ عندما يتحدثون عن المسيح بقولهم "مُعلمكم"، فهو

(١) مر ٢: ١٣- ١٧.
(٢) مر ١: ١٦- ٢٠.
(٣) مت ٩: ٩- ١٣.

معروف بأنه كان مُعلّماً- عليه السلام-، وقد بيّن المسيح أنه بُعِث رحمةً للعصاة لا عقاباً ولا عذاباً لهم، وأنه صاحب دعوةٍ أولى بها الخطاة والمذنبون لأن أصحاب الهداية لا يحتاجون إلى مَن يُعلمهم طريق الله.

وهكذا بيّن المسيح بما لا يدع مجالاً للشك أنه رسول مِن رسل الله- عز وجل- أرسله الله لتتوالى سلسلة الهُدى والنبوة والرحمة والهداية، وأنه -عليه السلام- اجتهد في دعوته وبيان رسالته لبني إسرائيل وعاش بينهم مُعلّماَ وهادياً وداعياً مُخلِصاً في دعوته شأنه شأن السابقين عليه مِن الأنبياء والرسل.

المطلب الثاني
المسيح يُقارِن نفسه في الأناجيل بالأنبياء، ويتعبد لربه.

إنّ مما يلفت النظر في حديث المسيح عن رسالته وطبيعة دعوته أنه كان دائماً يُقارِن نفسه بأنبياء الله –عليهم السلام– ولم يرد في الأناجيل ولا في غيرها أنه وضع نفسه في مقارنة مع ملَكٍ مِن الملائكة أو مع الخالق– جل وعلا– وحول هذا المعنى جاء في إنجيل لوقا عن محاورة المسيح لأهل الناصرة:(وبالحق أقول لكم: إنّ أرامل كثيرةً كُنّ في إسرائيل في أيام إيليّا حين أُغلِقَت السماء مُدة ثلاث سنين وستة أشهر، لّما كان جُوعٌ عظيمٌ في الأرض كُلّها، ولم يُرسَل إيليّا إلى واحدةٍ منها، إلا إلى امرأةٍ أرملةٍ، إلى صَرفَةِ صَيدَاء. وبُرصٌ كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان أَلِيشَعَ النبيّ ولم يُطهّر واحدٌ منهم إلا نُعمان السُرياني")[1]، ويزيد الأمر تجليةً ما جاء في إنجيل متى عن المسيح:(ولّما جاء إلى الهيكل تقدّم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يُعلّم، قائلين:" بأي سلطانٍ تفعلُ هذا؟ ومَن أعطاك هذا السُلطان؟" فأجاب يسوع وقال لهم:" وأنا أيضاً أسألكم كلمةً واحدةً، فإن قُلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضاً بأي سُلطانٍ أفعل هذا: معمودية يوحنا: مِن أين كانت؟ مِن السماء أم مِن النّاس؟" ففكروا في أنفسهم قائلين:" إن قلنا مِن السماء، يقول لنا: فلماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قلنا: مِن النّاس، نخافُ مِن الشعب، لأنّ يوحنا عند الجميع مِثلُ نبي". فأجابوا يسوع وقالوا:" لا نعلمُ". فقال لهم هو أيضاً:" ولا

(١) لو ٤: ٢٥– ٢٧.

أنا أقول لكم بأي سُلطانٍ أفعلُ هذا)[١]، وقد تكرر ذِكر هذه الواقعة في إنجيل مرقس[٢]، ولوقا[٣]، وجاء في إنجيل متى على لسان المسيح وهو يرثي أورشليم:(يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرةٍ أردتُ أن أجمع أولادك كما تجمعُ الدجاجةُ فراخها تحت جناحَيها ولم تُريدوا!)[٤]، وجاء نفس الرثاء في إنجيل لوقا[٥]، وقد زاد لوقا في إنجيله أنّ المسيح قال للفريسيين:(بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه، لأنه لا يُمكن أن يهلك نبيّ خارجاً عن أورشليم)[٦]، فالمسيح يتحدّث عن نفسه بالنبوة الصريحة، ويضع نفسه في مقارنةٍ مع الأنبياء، مُشيراً بذلك إلى مرتبته السامية وهي مرتبة النبوة، وهكذا كان يُقارنه أهل زمانه – لا سيما تلامذته– دوماً بالأنبياء، جاء في إنجيل لوقا:(وإذ كان يُصلّي في موضعٍ، لمّا فرغ، قال واحدٌ مِن تلاميذه: يا ربُّ، علّمنا أن نُصلّي كما علّم يوحنا أيضاً تلاميذه)[٧].

أما تعبدّ المسيح لربه، فقد نقلت الأناجيل عنه أنه كان يتعبد لربه ويتضرع

(١) مت ٢١: ٢٣– ٢٧.
(٢) مر ١١: ٢٧– ٣٣.
(٣) لو ٢٠: ١– ٨.
(٤) مت ٢٣: ٣٧.
(٥) لو ١٣: ٣٤.
(٦) لو ١٣: ٣٣.
(٧) لو ١١: ١.

إليه– سبحانه– شأنه شأن سائر الأنبياء، حيث جاء في إنجيل متى عن التلاميذ:(حينئذٍ جاء معهم يسوع إلى ضيعةٍ يُقال لها جَثسَيمَانِي، فقال للتلاميذ:" اجلسوا ههنا حتى أمضي وأُصلّي هناك". ثمّ أخذ معه بطرس وابنَي زَبدِي، وابتدأيحزن ويكتئب. فقال لهم:" نفسي حزينةٌ جداً حتّى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي". ثمّ تقدّم قليلاً وخرّ على وجهه، وكان يُصلّي قائلاً:" يا أبتاه، إن أمكن فلتَعبُر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أُريد أنا بل كما تريد أنت". ثمّ جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياماً، فقال لبطرس:" أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعةً واحدةً؟ اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربةٍ. أمّا الروح فنشيطٌ وأمّا الجسدُ فضعيفٌ". فمضى أيضاً ثانيةً وصلى قائلاً:" يا أبتاه، إن لم يمكن أن تَعبُر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك". ثمّ جاء فوجدهم أيضاً نياماً،إذ كانت أعينُهُم ثقيلةً.فتركهم ومضى أيضاً وصلّى ثالثةً قائلاً ذلك الكلام بعينه)[1]، وقد ذكر مرقس نفس الواقعة في إنجيله[2]، ثمّ جاء في إنجيل لوقا عن المسيح ما نصّه:(وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه أيضاً تلاميذه. ولّما صار إلى المكان قال لهم:"صلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة". وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلّى قائلاً:" يا أبتاه، إن شئتَ أن تُجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك". وظهر له مِن السماء ملاك يقوّيه. وإذ كان في جهادٍ كان

(١) مت ٢٦: ٣٦– ٤٤.
(٢) مر ١٤: ٣٢– ٣٩.

يُصلّي بأشد لجاجة، وصار عَرَقه كقطراتِ دمٍ نازلةٍ على الأرض)[١]، فما أشد دقة عبارات لوقا وهو يقول عن المسيح– عليه السلام–"وجثا على ركبتيه"، و "وإذ كان في جهادٍ كان يُصلّي بأشد لجاجة"، وما أجمل هذا التشبيه " وصار عرقه كقطراتِ دمٍ نازلةٍ على الأرض"، وهذه التعبيرات لا تدع مكاناً للشك في عبودية المسيح– عليه السلام– لربه وتعبده له – سبحانه– وشدة اجتهاده في الدعاء واللجوء إليه – سبحانه– فأنّى لرجلٍ يرفعه أتباعه فوق منزلة البشرية ويرتقون به إلى المشاركة في الألوهية وهذا حاله مع ربه ركوعاً وتضرعاً وتذللاً وخضوعاً!

ولم يخل حتى إنجيل يوحنا مِن مثل هذه المظاهر– مظاهر عبودية المسيح وتضرعه– حيث جاء فيه:(تكلّم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال:" أيها الآب، قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليُمجّدَك ابنك أيضاً، إذ أعطيته سُلطاناً على كل جسدٍ ليُعطي حياةً أبديةً لكل مَن أعطيتَه. وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته. أنا مجّدتُك على الأرض. العمَل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه)[٢]، وجاء في نصّ هذا التعبد:(أيها الآب البارّ، إنّ العالَم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني)[٣]، فعلى الرغم مما يدور حول إنجيل يوحنا مِن شكوك، وما يحتوي عليه مِن مبالغاتٍ خلت منها الأناجيل الثلاثة الأولى، إلا أنّ هذا الإنجيل قد احتوى على شواهد عبودية

(١) لو ٢٢: ٣٩– ٤٤.
(٢) يو١٧: ١– ٤.
(٣) يو ١٧: ٢٥.

المسيح وتضرعه لخالقه فهو يقول :"أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته"، و"وهؤلاء- يعني التلاميذ- عرفوا أنك أنت أرسلتني"، فالإقرار لله بالألوهية والوحدانية وللمسيح بالرسالة واضح جليّ.

وجاء في إنجيل متى:(ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوتٍ عظيمٍ قائلاً: إيلي، إيلي، لما شبقتني؟" أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟)[١]، وقد تكررت نفس المناجاة في إنجيل مرقس[٢]، وفي إنجيل لوقا[٣]، وجاء في إنجيل متى عن المسيح:(وبعدما صرفَ الجُمُوعَ صعَدَ إلى الجبلِ مُنفرِدًا ليُصلي)[٤]، وحينما رفض -عليه السلام- السجود لإبليس وزجره بأنّ السجود لا يكون إلا لله وكذا العبادة، جاء في إنجيل متى:(حينئذٍ قال له يسوع:" اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد")[٥]، ثمّ جاء فيه أيضاً عن المسيح:(حينئذٍ قُدّم إليه أولادٌ لكي يضع يديه عليهم ويُصلّي، فانتهرهم التلاميذ. أمّا يسوع فقال:" دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات")[٦]، وكذلك جاء في إنجيل لوقا:(وإذ كان يُصلّي في موضعٍ، لّما فرغ، قال لواحد مِن

(١) مت ٢٧: ٤٦.
(٢) مر ١٥: ٣٤.
(٣) لو ٢٣: ٤٦.
(٤) مت ١٤: ٢٣.
(٥) مت ٤: ١٠.
(٦) مت ١٩: ١٣- ١٤.

تلاميذه:"يا ربُّ، علّمنا أن نُصلّي كما علَم يوحنا أيضاً تلاميذه".فقال لهم:" متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خُبزُنا كفافَنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا لأننا نحنُ أيضاً نغفرُ لكلِ مّن يُذنبُ، ولا تُدخلنا في تجربةٍ لكن نجنا مِن الشرير)[١]، فالمسيح لا يتعبد لربه فقط، بل يُعلّم تلاميذه الذين يُقارنوه برسول الله يحيى–عليه السلام– يُعلمهم كيف تكون الصلاة وكيف يكون الدعاء والتوجه إلى الله وطلب المغفرة منه سبحانه لا مِن أحدٍ غيره ولو كان المسيح نفسه[٢] وجاء في إنجيل لوقا:(ولّما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً. وإذ كان يُصلّي انفتحت السماء، ونزل عليه الروح القدس بهيئةٍ جسميّةٍ مِثل حمامةٍ، وكان صوتٌ مِن السماء قائلاً:" أنت ابني الحبيب، بك سُررت")[٣]، فالنّص يُقِر صراحةً بأنّ المسيح اغتسل وصلّى وبأنه نزل عليه روح القدس، وهذا شأن الأنبياء لا شأن الآلهة ولا الملائكة.

وهكذا أثبتت الأناجيل مِن خلال ما تناقلته مِن كلام المسيح– عليه السلام– أنه دائماً ما كان يُقارِن نفسه بالأنبياء، وأنه كان مِن تمام نبوته أنه كان عابداً خاضعاً مُتضرعاً لله رب العالمين.

---

(١) لو ١١: ١– ٤.

(٢) راجع أيضاً : مت ٦: ٩– ١٥.

(٣) لو ٣: ٢١، ٢٢، وراجع أيضاً : مت ٣: ١٣– ١٧، و مر ١: ٩– ١٣.

المطلب الثالث
المسيح ينصّ في الأناجيل على أنه يحفظ وصايا الله ويُنفذها، وأنه يُربي تلاميذ لا أنبياء، وأنه يشفي المرضى بإذن الله- عز وجل-.

إنّ مِن أعظم البيان والتفصيل الذي قدّمته الأناجيل من أحاديث المسيح– عليه السلام– عن نفسه أنّها نقلت عنه أنّ مِن أهم أركان بعثته حِفظ ما أوصاه الله – جل وعلا– به وتطبيقه على أكمل وجه،وهذا ما نطقت به الأناجيل بصورةٍ واضحةٍ جلية، جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح وهو يُحاور اليهود:(أجاب يسوع:" إن كنتُ أمجّدُ نفسي فليس مجدي شيئاً. أبي هو الذي يُمجّدني، الذي تقولون أنتم إنّه إلهكم، ولستم تعرفونه. وأمّا أنا فأعرفه. وإن قلتُ إنّي لستُ أعرفُه أكونُ مثلكم كاذباً، لكني أعرفه وأحفظُ قولَه.)[١]، وجاء فيه أيضاً على لسان المسيح مُخاطباً تلامذته:(إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظتُ وصايا أبي وأثبتُ في محبته)[٢]، فجعل المسيح حفظ الوصايا مِن قِبَل التلاميذ سبيلاً للثبات في محبتهم له، وشبّه ذلك بحفظه لوصايا الله –عز وجل– والذي كان داعياً لثباته– عليه السلام– في محبة رب العالمين.

(١) يو ٨: ٥٤– ٥٥.
(٢) يو ١٥: ١٠.

ومِن منطلق حفظ الوصايا وإبلاغها للتلاميذ أخذ المسيح على عاتقه أن يُربي تلاميذ يحفظون هذه الوصايا ويبلغونها للناس، فكانوا خير رسلٍ حملوا رسالة المسيح لبني إسرائيل، وكونهم رسلاً لا يعني أنّ المسيح إله، فأي رجلٍ يبعث رجلاً برسالةٍ فإنّ المُرسَل (حاملُ الرسالة) يُسمّى رسولاً، وهذا لا يعني أنّ الذي أرسله إله أو أنّ به شيئاً مِن الألوهية، وهذا ما نصّت عليه الأناجيل صراحةً على لسان المسيح– عليه السلام–، فقد شهدت أنّ المسيح لم يكن إلهاً ولا جزءًا مِن إله يُربي أنبياء، وإنما كان نبيّاً يُربي تلاميذ يحملون رسالة الله– عز وجل– إلى بني إسرائيل، جاء في إنجيل لوقا عن المسيح:(وكان جموعٌ كثيرةٌ سائرين معه، فالتفت وقال لهم:" إن كان أحدٌ يأتي إليّ ولا يُبغِضُ أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً)[١]، فهذه هي الضوابط التي وضعها المسيح– عليه السلام– لمن يريد أن يكون مِن تلاميذه، وجاء في نفس الإنجيل والإصحاح على لسان المسيح:(وأيُّ ملِكٍ إن ذهبَ لمُقاتلةِ ملِكٍ آخَر في حربٍ، لا يجلسُ أوّلاً ويتشاور: هل يستطيعُ أن يُلاقيَ بعشرةِ آلافٍ الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً؟ وإلا فما دامَ ذلكَ بعيداً، يُرسِلُ سِفارةً ويسألُ ما هو للصلحِ. فكذلك كلُ واحدٍ منكم لا يتركُ جميعَ أموالهِ، لا يقدرُ أن يكونَ لي تلميذاً)[٢]، ولم يقل لي رسولاً! ولو كان إلهاً أو به شيءٌ مِن الألوهية لقال: " لا يقدرُ أن يكونَ لي رسولاً".

(١) لو ١٤: ٢٥– ٢٦.
(٢) لو ١٤: ٣١– ٣٣.

وحتى في توجيهاته وأثناء تربيته للتلاميذ كان دائماً ما يربط دعوهم بالخالق – جلّ وعلا– ويوجههم إلى أنّ تكون غايتهم العُظمى هي رضا الله عنهم، جاء في إنجيل متى على لسان المسيح مُخاطباً التلاميذ:(أنتم نورُ العالَم. لا يُمكِنُ أن تُخفَى مدينةٌ موضوعةٌ على جبلٍ، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارةِ فيضيءُ لجميعِ الذين في البيتِ. فليُضِئ نوركم هكذا قُدّام النّاسِ، لكي يروا أعمالكم الحسنةَ، ويُمجّدوا أباكم الذي في السماوات)[١]، فالهدف مِن إرسال المسيح لهؤلاء التلاميذ أن يكونوا قدوةً وأسوةً للناس يحملوهم بحُسن أعمالهم وجميل أخلاقهم على حُسن التعبد لله رب العالمين، وقد نقلت الأناجيل على لسان المسيح– عليه السلام– الكثير مِن التوجيهات والنصائح التي وجّه المسيح بها تلامذته[٢]، وهي على كثرتها وتكرارها في الأناجيل فإنها تنطق بأن هؤلاء التلاميذ ليسوا إلا حاملي رسالة المسيح– عليه السلام– إلى بني إسرائيل، وكان مِن أبرز هذه التعليمات وتلك التوجيهات:(فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كُلّها تطلُبُها الأمم. لأنّ أباكم السماويّ يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أوّلاً ملكوتَ الله وبرّه، وهذه كلها تُزاد لكم. فلا تهتموا للغد، لأنّ الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليومَ شرّه)[٣]، ومنها:(ها أنا أُرسِلُكم كغنمٍ في وسط ذئابٍ، فكونوا حُكماء كالحيات وبُسطاء كالحمام،

(١) مت ٥: ١٤– ١٦.
(٢) راجع مت ١٠، و مر ٦: ٧– ١٣، و لو ٦: ١٢– ٤٩، ٩: ١– ٦.
(٣) مت ٦: ٣١– ٣٤.

ولكن احذروا مِن النّـــاس، لأنّهـــم سيُســـلِمونكم إلى مجـــالس، وفي مجـــامعهم يجلدونكم... ليس التلميذُ أفضلُ مِن المُعلّم، ولا العبدُ أفضلُ مِن ســـيّده. يكفـــي التلميذَ أن يكونَ كمُعلّمه، والعبدَ كسيده.)[١]، وما أكثر هذه التوجيهات التي لا يتسع المجال لذِكرها، وأقصى ما ذهبت إليه الأناجيل في كلام المسيح لتلامذته أنها ذكرت أنّه أعطاهم سُلطاناً على الأرواح النجسة، وأنه منحهم حق شفاء المرضى، وتطهير أصحاب البَرَص، وإحياء الموتى، جاء في إنجيل متى عن التلاميذ:(هـــؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً:" إلى طريقِ أممٍ لا تمضوا، وإلى مدينـــةٍ للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالخَرِيّ إلى خِرافِ بيتِ إسرائيل الضالة. وفيمـــا أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين: إنّه قد اقترب ملكوتُ السماواتِ. اشـــفوا مرضـــى. طهّروا بُرصاً. أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجاناً أخذتم، مجّاناً أعطوا)[٢]، وعلى الرغم مِن وجود عباراتٍ واضحةٍ وصريحة في إنجيل لوقا تُحـــدّد مصـــدر هـــذه المُعجزات مِثل قوله:(وأرسلَهُم ليَكرِزوا بملكوتِ الله ويشفوا المرضـــى)[٣]، إلا أنّ أقوى دليلٍ على كون هذه المعجزات مِن عند الله– عز وجل– أنّ المسيح–عليـــه السلام– لم يدّع أنّه يفعلها مِن تلقاء نفسه، كما أنّه لم يدّع معها ألوهيـــةً أو طلبـــاً بعبادته، بل شهد–عليه السلام– أنّه ما كان ليفعل هذه المعجزات مِن تلقاء نفسه، بل كان يشفي المرضى بإذن الله، ويُخرج الشياطين مِن الأجساد بإذن الله، ويُحيي

(١) مت ١٠: ١٦، ١٧، ٢٤، ٢٥.
(٢) مت ١٠: ٥– ٨، و راجع مر ٦: ٧– ١٣، و لو ٩: ١– ٦.
(٣) لو ٩: ٢.

الموتى بإذن الله، وهذا ما شهدت به الأناجيل على لسان المسيح، حيث نقل لوقا في إنجيله على لسان المسيح وهو يُخاطِبُ بعض السامريين:(فإن كنتُ أنا بِبَعلَزَبُولَ أُخرِجُ الشياطينَ، فأبناؤكم بمَن يُخرِجون؟ لذلِكَ هم يكونونَ قضاتَكم! ولكن إن كنتُ بأصبعِ اللهِ أُخرِجُ الشياطين، فقد أقبلَ عليكم ملكوتُ الله)[١]، بل إنّ النّاس على عهد المسيح كانوا يعرفون أنّه- عليه السلام- لا يأتي بالمُعجزات مِن قِبَل نفسه بل بقدرة الله- عز وجل-، جاء في إنجيل متى عن المسيح:(فدخل المدينة واجتاز وجاء إلى مدينته. وإذا مفلوجٌ يُقدّمونه إليه مطروحاً على فراشٍ. فلمّا رأى يسوعُ إيمانهم قالَ للمفلوجِ:" ثِق يا بُنيّ. مغفورةٌ لك خطاياكَ". وإذا قومٌ مِن الكتبةِ قد قالوا في أنفسهِم:" هذا يُجدّفُ!" فعلِمَ يسوعُ أفكارهم، فقالَ:" لماذا تُفكّرون بالشرِ في قلوبِكم؟ أيُّما أيسرُ، أن يُقَالَ: مغفورةٌ لك خطاياكَ، أم أن يُقالَ: قُم وامشِ؟ ولكن لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفرَ الخطايا". حينئذٍ قال للمفلوجِ:" قُم احمل فراشك واذهب إلى بيتك". فقامَ ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموعُ تعجّبوا ومجّدوا الله الذي أعطى النّاس سُلطاناً مِثلَ هذا)[٢]، والمُدقق في هذا النّص يلحظ كلام المسيح وهو يقول " ولكن لكي تعلموا أنّ لا بن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفرَ الخطايا" فاختار لنفسه وصف "ابن الإنسان"، ولهذا الوصف دلالة في هذا السياق، فربما خشي المسيح- عليه السلام- أن يُسيء النّاس فهم المُعجزة أو ينسبوها إليه، فوصف نفسه بابن

(١) لو ١١: ١٩- ٢٠.
(٢) مت ٩: ١- ٨.

الإنسان، ويَلحظُ المُدقق أيضاً أنّ الجموع "مجّدوا الله" ولم يُمجّدوا المسيح، وأنّ المسيح لم يعترض على ذلك، ولم يُعلّق عليه، وعلى الرغم مِن ذلك إلا أنّ مرقس حاول إلصاق هذه المعجزات بالمسيح نفسه لا على أنّها تحدث بقدرة الله– سبحانه–، يقول مرقس في إنجيله عن المسيح بعد أن ادّعى أنّه –عليه السلام– شفى مجنوناً:(ولّما دخل السفينةَ طلبَ إليه الذي كان مجنوناً أن يكونَ معه، فَلَم يَدَعهُ يسوعُ، بل قالَ له:" اذهب إلى بيتِك وأهلِك، وأخبرهم كم صنعَ الربُ بك ورحمَكَ")[١]، غير أنّ لوقا في إنجيله وفي نفس الحادثة كان أكثر دقةً في تحديد صاحب المعجزة الأصلي– سبحانه– حيث قال لوقا في إنجيله:(أمّا الرجل الذي خرجت منه الشياطين فطلب إليه أن يكونَ معه، ولكنّ يسوع صرفه قائلاً:" ارجع إلى بيتك وحدّث بكم صنعَ الله بك". فمضى وهو ينادي في المدينة كلّها بكم صنعَ به يسوع)[٢]، ومِن المتفق عليه بين النصارى أنّ المسيح ليس هو الله.

وهكذا نقلت الأناجيل على لسان المسيح – عليه السلام– أنه كان مجرد حافظٍ لوصايا الله– جل وعلا– وأنه كان يُربي جيلاً من التلامذة يحملون دعوته، وأنه كان يأتي بالمعجزات بقدرة الله – جل وعلا– لا بقدرته ولا بمشيئته بل بقدرة الله ومشيئته.

(١) مر ٥: ١٨– ١٩.
(٢) لو ٨: ٣٨– ٣٩.

المبحث الثاني

حديث المسيح -عليه السلام- في الأناجيل عن طبيعته.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المسيح يعلن في الأناجيل أنه إنسان وابن إنسان.

المطلب الثاني: المسيح يُقرر في الأناجيل أنه لا يعلم الغيب.

المطلب الثالث: المسيح يعلن في الأناجيل أنه بشر يكتنفه ما يكتنف غيره مِن أحوال البشر.

تمهيد

اشتملت الأناجيل على العديد مِن النّصوص التي تُمجّد المسيح– عليه السلام– والتي تحتمل أكثر مِن وجهٍ عند تأويلها، وهي إلى المعاني اللغوية والمجازية أقرب منها إلى اللفظ الظاهر، ومع ذلك فقد اشتملت الأناجيل على العديد مِن النّصوص التي تحدّث المسيح فيها بنفسه عن طبيعته، وبعد أن تناولنا في التمهيد رؤية المعاصرين للمسيح–عليه السلام– ونظرتهم إليه، وعرفنا كيف كانوا يرونه، وبعد أن تناولنا في الفصل الأول جانباً مِن أحاديث المسيح– عليه السلام– عن دعوته ومهمته ورسالته، نقترب في هذا الفصل أكثر فأكثر مِن شخصية المسيح– عليه السلام– لنرى كيف تحدّث المسيح– عليه السلام– عن طبيعته، وهل كان– عليه السلام– يرى نفسه إلهاً أو جزءًا مِن إله؟ أم كان يرى نفسه ابن الله المُستحق للتقديس مع الله؟ أم كان يرى نفسه ثلث إله ذو طبيعةٍ لاهوتية؟ أم كان يرى نفسه إنساناً وابن إنسانٍ لا يعلمُ الغيب ويعتريه ما يعتري سائر البشر مِن الجوعِ والعطش والتعب والموت وسائر أمور الآخرة؟

ويأتي هذا الفصل ليُلقي نظرةً سريعةً على طبيعة المسيح– عليه السلام– مِن خلال الأناجيل ومِن خلال حديث المسيح عن طبيعته التي خلقه الله عليها.

المطلب الأول
المسيح ينص في الأناجيل على أنه إنسان وابن إنسان.

وصفت الأناجيلُ المسيح– عليه السلام– بعددٍ كبيرٍ مِن الأوصاف، ووصف المسيحُ نفسه أيضاً بأوصافٍ كثيرةٍ كان مِن أهمها أنه إنسان وابن إنسان، وكثيراً ما كان استخدام المسيح لهذه الصفة في المواقف التي قد يُسيء فيها أتباعه وأهل دعوته فَهمَ طبيعته كالمواقف التي يُظهِر فيها بعض المعجزات مثلاً، جاء في إنجيل متى على لسان المسيح وهو يُعلّل لأهل مدينته معجزة شفاء المشلول:(ولكن لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفرَ الخطايا". حينئذٍ قال للمفلوجِ:" قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك!". فقام ومضى إلى بيته)[١]، وذكر نفس الإنجيل أنّ المسيح حينما أرسل تلامذته إلى بني إسرائيل قال لهم:(ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى. فإنّي الحقَّ أقولُ لكم: لا تُكمّلون مُدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان)[٢]، وجاء في إنجيل متى أيضاً عن علامات القيامة:(وحينئذٍ تظهرُ علامةُ ابنِ الإنسان في السماء)[٣]، أمّا الحديث الأول للمسيح فكان عند معجزة شفاء المشلول، وأمّا الحديثان الآخران فقد كانا عن نزوله عليه السلام كآية وعلامة على قيام الساعة، وجميعها أمورٌ مُعجِزةٌ؛ لذا

(١) مت ٩: ٦– ٧، وراجع: لو ٥: ٢٤.
(٢) مت ١٠: ٢٣.
(٣) مت ٢٤: ٣٠.

استخدم المسيح لنفسه وصف "ابن الإنسان" حتى لا يُنزله أتباعه عند خوارق العادات مكانةً أكبر مِن مكانته.

وفي سياق المعجزات ذاته ذكر متى في إنجيله أنّ المسيح خصّ التلاميذ بمزيد بيانٍ في هذا الشأن، يقول متى:(وفيما كان يسوع صاعداً إلى أورشليم أخذ الاثني عشر تلميذاً على انفرادٍ في الطريقِ وقالَ لهم:" ها نحنُ صاعدونَ على أورشليم، وابن الإنسانِ يُسلّمُ إلى رؤساءِ الكهنةِ والكتبةِ فيحكمونَ عليه بالموت)[١]، ولك أن تُلاحِظ تعبير متى حينما ترك المسيح– عليه السلام– يُعبّر بدقةٍ عن اللحظاتِ الأخيرة دون تدخّل متى أوغيره، نقل على لسانه – عليه السلام– أنه قال "فيحكمون عليه بالموت"، ولم يقل المسيح عن هذه اللحظات أنّهم سيقتلونه! وقد ذكر مرقس في إنجيله نفس الواقعة ونقل على لسان المسيح أنّه قال:(وحينئذٍ يُبصِرونَ ابن الإنسانِ آتيًا في سحابٍ بقوّةٍ كثيرةٍ ومجدٍ)[٢]، وفي إنجيل لوقا:(وأخذ الاثنى عشر وقال لهم:" ها نحنُ صاعدونَ إلى أورشليم، وسيتمُ كلُ ما هو مكتوبٌ بالأنبياءِ عن ابن الإنسانِ")[٣]، وفي إنجيل يوحنا عن تلميذين من تلامذة المسيح:(وأمّا يسوعُ فأجابهمُا قائلاً:" قد أتت الساعةُ ليتمجّدَ ابنُ الإنسانِ)[٤]، وفيه أيضاً في محاورة المسيح لليهود:(الحقّ الحقّ أقولُ لكم: إنّهُ تأتي

(١) مت ٢٠: ١٧– ١٨.
(٢) مر ١٣: ٢٦.
(٣) مر ١٨: ٣١.
(٤) يو ١٢: ٢٣.

ساعةٌ وهي الآن، حينَ يسمعُ الأمواتُ صوتَ ابنِ الله، والسامعونَ يحيون. لأنّه كما أنّ الآبَ له حياةٌ في ذاتهِ، كذلكَ أعطى الابنَ أيضاً أن تكونَ له حياةٌ في ذاتهِ، وأعطاهُ سُلطاناً أن يدينَ أيضاً، لأنّه ابنُ الإنسانِ. لا تتعجبوا مِن هذا، فإنّه تأتي ساعةٌ فيها يسمَعُ جميعُ الذينَ في القبورِ صوتَهُ، فيخرجُ الذينَ فعلوا الصالحاتِ إلى قيامةِ الحياةِ، والذين عملوا السيئاتِ إلى قيامةِ الدينونةِ. أنا لا أقدِرُ أن أفعلَ مِن نفسي شيئاً. كما أسمَعُ أَدِينُ، ودينونتي عادلةٌ، لأني لا أطلبُ مشيئتي بل مشيئةَ الآب الذي ارسلني)[١]، وقد آثرتُ نقل النّص السابق بتمامِه حتى يتبين للقارئ ما حواه إنجيل يوحنا مِن التناقضات، فبينما ينقل عن المسيح قوله عن نفسه أنّه "ابن الله" ينقل عنه قوله "ابنُ الإنسان"، وهذا التناقض دفع النصارى في تأويلاتهم أن يقولوا بالناسوت واللاهوت وغير ذلك مِن العقائد التي ربما تزول مِن جذورها لو فهم هؤلاء معنى "ابنُ الله" وهذا ما سنتناوله – بمشيئة الرحمن– في الفصل الأخير مِن البحث، وجاء في إنجيل متى في سياق المُعجزات أنّ المسيح قال لتلامذته:(الحقّ أقولُ لكم: إنّ مِن القيامِ ههنا قومًا لا يذوقونَ الموتَ حتى يروا ابنَ الإنسانِ آتيًا في ملكوته)[٢]، وفي إنجيل لوقا:(لأنّ مَن استحى بي وبكلامي، فبهذا يستحِي ابنُ الإنسانِ متى جاءَ بمجدِه ومَجدِ الآبِ والملائكةِ القدّيسين)[٣].

وكان المسيح– عليه السلام– يزرعُ في تلامذته أنه ابن الإنسان، وكان

(١) يو ١٢: ٢٣.
(٢) مت ١٦: ٢٨.
(٣) لو ٩: ٢٦.

يُكثر من استخدام هذه الصفة معهم لأنهم المُبلّغون عنه وحملة رسالته إلى بني إسرائيل، جاء في إنجيل متى على لسان المسيح موجهاً تلامذته:(طوبَى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمةٍ شريرةٍ، مِن أجلي، كاذبين. افرحوا وتهللوا، لأنّ أجركم عظيمٌ في السماوات، فإنّهم هكذا طردوا الأنبياءَ الذين قبلكم)[١]، وبينما كان حديث المسيح عن نفسه في هذا الموقف في إنجيل متى بعبارة "مِن أجلي"، كان الحديث في إنجيل لوقا أوضح وأدق، حيث جاء فيه:(طوباكم إذا أبغضكم النّاسُ، وإذا أفرزوكم وعيّروكم، وأخرجوا اسمَكُم كشريرٍ مِن أجلِ ابنِ الإنسانِ. افرحوا في ذلك اليومِ وتهللوا، فهوا ذا أجرُكم عظيمٌ في السمّاء. لأنّ آباءَهم هكذا كانوا يفعلونَ بالأنبياءِ)[٢]، فجاء التعبير "مِن أجل ابن الإنسان"، وهذا شأن الأناجيل عندما تنقل عن المسيح في باب المعجزات التي تفوق العقل، ونقل متى في إنجيله على لسان المسيح في معجزة التجلي وهو يُخاطِبُ تلامذته:(وفيما هم نازلونَ مِن الجبلِ أوصاهُم يسوعُ قائلاً:" لا تُعلِموا أحدًا بما رأيتُم حتى يقومَ ابنُ الإنسانِ مِن الأموات"... ولكني أقولُ لكم: إنّ إيليّا قد جاءَ ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلكَ ابنُ الإنسانِ أيضًا سوف يتألمُ منهم)[٣]، وقال مرقس:(وفيما هم نازلونَ مِن الجبلِ، أوصاهُم أن لا يُحدّثوا أحدًا بما أبصروا، إلا متى قامَ ابنُ الإنسانِ مِن الأمواتِ... فأجابَ وقالَ لهم:" إنّ إيليّا يأتي أوّلًا ويرُدُ كلَ

(١) مت ٥: ١١– ١٢.
(٢) لو ٦: ٢٢– ٢٣.
(٣) مت ١٧: ٩، ١٢.

شيءٍ. وكيفَ هو مكتوبٌ عن ابنِ الإنسانِ أن يتألَمَ كثيرًا ويُـرذَلَ[١]، وجـاء في إنجيل لوقا عن تلميذين مِن التلامذة:(فالتفتَ وانتهرهما وقالَ:" لستُمَا تعلمانِ مِن أي روحٍ أنتما! لأنّ ابنَ الإنسانِ لم يأتِ ليُهلِك أنفُسَ النّاسِ، بل ليُخلّص". فمضوا إلى قريةٍ أخرى)[٢]. وفي كل هذه المناسبات وغيرها تـنصُ الأناجيـل علـى أنّ المسيح– عليه السلام– كان يغرسُ في نفوس تلامذته أنّه إنسانٌ وابـنُ إنسـانٍ لا سيما عند وقوع المُعجزات أو الإخبار عن أمور الغيب.

وجاء في إنجيل متى على لسان المسيح:(وبِمَن أُشبّهُ هذا الجيـلَ؟ يُشـبِهُ أولادًا جالسينَ في الأسواقِ يُنادونَ إلى أصحابِهم ويقولونَ: زمّرنـا لكـم فلَـم ترقُصُوا! نُحنا لكم فلَم تلطِمُوا! لأنّه جاء يوحنا لا يأكُلُ ولا يشربُ، فيقولونَ:فيهِ شيطانٌ.جاءَ ابنُ الإنسانِ يأكلُ ويشربُ، فيقولونَ: هو ذا إنسانٌ أكولٌ وشِـرّيبُ خمرٍ، مُحِبٌ للعشّارين والخُطاةِ. والحكمةُ تبررت مِن بنيها")[٣]، وجاء فيـه أيضـاً على لسان المسيح– عليه السلام– وهو يخاطب الفريسيين:(لذلكَ أقولُ لكم: كلُ خطيّةٍ وتجديفٍ يُغفَرُ للنّاسِ، وأمّا التجديفُ على الروحِ فلن يُغفَرَ للنّاسِ. ومَن قالَ كلمةً على ابن الإنسانِ يُغفَرُ له، وأمّا مَن قالَ على الروح القُدُس فلن يُغفَرَ له، لا في هذا العالَم ولا في الآتي)[٤]، وفي هذا النّص يُقِرُ متى بأنّ المسيح اختـار لنفسـه

(١) مر ٩: ٩، ١٢.
(٢) لو ٩: ٥٥– ٥٦.
(٣) مت ١١: ١٦– ١٩، و لو ٧: ٣١– ٣٥.
(٤) مت ١٢: ٣١– ٣٢.

وصف "ابن الإنسان" مُساوياً نفسه بسائر النّاس، وواضعاً فارقاً كبيراً بينه وبين الملائكة وبين الله– عز وجلّ–!

وأعظم شاهد على وجود هذا الفارق – وعلى كون المسيح إنسان وابن إنسان– هو وصف الأناجيل المتكرر له ولجسده وأظافره وشعره وغيرها من أجزاء الجسد التي لا تليق بأن تكون فيمن يُنسَب إلى الألوهية، (قال لوقا في إنجيله إن المسيح بعد ما قام من قبره دخل إلى الحواريين وهم مجتمعون "فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً فقال لهم: ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟ انظروا يدي ورجلي إني أنا هو، جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي" وواضح من قول المسيح (عليه السلام) أنه مركب من لحم وعظم كغيره من البشر... كما أن الإنجيل قد بين أن المسيح قلم أظفاره، وقص شعره، ونما جسمه طولاً وعرضاً، فكيف يكون خالقاً أزليّاً وقد انفصلت منه هذه الأجزاء وتلاشت ولم يبق لها وجود؟ وهل يجوز في حق الخالق الأزلي أن يفسد بعضه ويصبح رميماً؟ أليس من كان هذه صفته فهو محدود محتاج إلى غيره؟)[1]

وقد نصّت الأناجيلُ على أنّ المسيح– عليه السلام– كان كثيرًا ما يضربُ الأمثال ويستخدمُ التشبيهات وأنّه كان –عليه السلام– عندما يُفسّرُ هذه الأمثال كان يستخدمُ مُصطلح "ابن الإنسان"، وذلك حتى لا تُفسّر هذه الأمثال

(١) راجع "التثليث بين الوثنية والمسيحية"، للأستاذ الدكتور "محمود علي حماية"، ص٥٧، ٥٨ باختصار، الناشر: مكتبة الإيمان، العجوزة– مصر٢٠٠٩م.

بحسب الأهواء، جاء في إنجيل متى:(حينئذٍ صرفَ يسوعُ الجموعَ وجاءَ إلى البيتِ. فتقدّمَ إليه تلاميذه قائلينَ:" فسّر لنا مَثَلَ زَوَانِ الحقلِ". فأجابَ وقالَ لهم:" الزّارِعُ الزّرعَ الجيّدَ هو ابنُ الإنسانِ)[1]، وما أجملَ هذا التشبيه وما أوضحه! إذ يُشبّه المسيحُ نفسه بزارعِ الزرع، فهذا حقاً دوره وهي حقيقة مهمته، وليس هو مُنبت الزرع ولا واهِب النعمة؛ ولذلك نصّ متى على أنّ المسيح استخدم مصطلح "ابن الإنسان" حتى يكونَ الأمور واضحاً لا لبس فيه.

وهكذا شهدت الأناجيلُ بأنّ المسيح– عليه السلام– إنسانٌ وابنُ إنسانٍ وكان تأكيد المسيح على هذا الأمر عند إظهار المعجزات والإخبار عن الغيبيات، وكان ذلك عند مخاطبة التلاميذ أكثر مِن غيرهم.

(١) مت ١٣: ٣٦– ٣٧.

المطلب الثاني
المسيح يُقرر في الأناجيل أنه لا يعلم الغيب.

إنّ مما اتفقت عليه الرسالات أنّه لا يُمكِنُ لشخصٍ أن يعلمَ الغيبَ المُطلَق ولو كان هذا الشخصُ نبيًّا مِن الأنبياءِ أو رسولًا مِن الرُسل، أو ملَكًا مِن الملائكةِ، على الرغمِ مما ظهر على أيدي الرسل والأنبياء مِن مُعجزاتٍ وآياتٍ بيّناتٍ باهراتٍ، وعلى ما أفاء الله به عليهم مِن بصيرةٍ ثاقبةٍ نافذةٍ يُطلعهم- سبحانه- مِن خلالها على بعض الغيب، إلا أنّ أحدًا منهم لم يدّع لنفسه عِلمَ الغيب ولا المسيحُ عيسى بن مريم- عليه السلام- حتى في الأناجيل! وهذا يشهدُ بأنّه -عليه السلام- لم يكن يعتبر نفسه إلهًا ولا جزءًا مِن إله ولا أنّ به شيئًا مِن الألوهية، ويُبطِلُ ما ذهبَ إليه النصارى وما يذهبون إليه دومًا في اعتقادهم في المسيح.

وقد شهدت الأناجيل أنّ المسيح- عليه السلام- أُوتِيَ معرفة بعض الغيبيات، وهذا شأن سائر الأنبياء، وقطعت في الوقتِ ذاتِه أنّه لا يعلم وقت قيام الساعة، حاله أيضًا حال إخوانه مِن الأنبياء والمرسلين، جاء في إنجيل متى:(وإذا قومٌ مِن الكتبةِ قد قالوا في أنفسهم:" هذا يُجدّفُ! فعَلِمَ يسوعُ أفكارَهُم، فقال:" لِماذا تُفكّرونَ بالشرِ في قلوبكم؟)[1]، وجاء في إنجيل مرقس:(وكانَ قومٌ مِن الكتبةِ هُناك جالسينَ يُفكّرونَ في قلوبهم:"لماذا يتكلمُ هذا هكذا بتجاديفَ؟ مَن يقدِرُ أن يغفرَ خطايا إلا اللهُ وحدَه؟ فللوقتِ شعَرَ يسوعُ برُوحِهِ أنّهم يُفكرونَ

(١) مت ٩: ٤.

هكذا في أنفسِهم، فقالَ لهم: لماذا تُفكرونّ بهذا في قلوبِكم؟)[١]، وفي إنجيل لوقا:(فابتدأ الكتبةُ والفريسيونَ يفكرونَ قائلينَ "مَن هذا الذي يتكلمُ بتجاديفَ؟ مَن يقدرُ أن يغفِرَ خطايا إلا اللهُ وحده؟" فشعَرَ يسوعُ بأفكارِهم، وأجابَ وقالَ لهم:" ماذا تُفكرونَ في قلوبِكم؟)[٢]، وعلى الرغم مِن أنّ الرواية في الأناجيل تُشير إلى أنّ المسيح يشفي ويغفرُ الخطايا ويعلمُ بما في قلوب الآخرين إلا أن الأناجيل نفسها شهدت أنّ الذي يشفي المرضى في الحقيقة هو الله –وقد اتضح هذا في المبحث الثالث مِن الفصل الأول– وأنّ بمقدورِ أي شخصٍ أن يُسامِح في حقه ويغفر بدليل ما نقلته الأناجيل على لسان المسيح أنّه قال:(ومَن قالَ كلمةً على ابنِ الإنسانِ يُغفَرُ له وأمّا مَن قال على الروحِ القُدسِ فلن يُغفَر له)[٣]، يقول صاحب الفارِق:(أقولُ لا شك أنّ العاقِلَ المُنصِف لا يفهَمُ مِن قولِه: كما نغفر نحنُ للمذنبينَ أيضًا، إلا معنى التجاوز والسماح مِن العبدِ لِمثلِه عما ارتكبه في حقهِ مِن العيوبِ لا عمّا ارتكبه مِن الجريمةِ والذنوبِ بالنسبةِ لخالقه)[٤]، وبمقدور أي شخصٍ أيضاً أن يقرأ أفكار مَن يُحاورهم وليس ذلك حكرًا على المسيح، بل شهدت الأناجيل أنّ بعض الصالحين يأتي بالأمور الخارقة للعادة، ويغفرون خطايا مَن أخطأ في شأنهم وهذا لا

(١) مر ٢: ٦– ٨.

(٢) لو ٥: ٢١– ٢٢، وراجع في هذا الشأن أيضًا: مت ١٦: ٥– ١٢، مر ٨: ١٣– ٢١.

(٣) مت ١٢: ٣٢.

(٤) راجع "الفارق بين المخلوق والخالق"، لـ "عبد الرحمن الباجه جي زاده"، ص٥٨، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة النافذة، الجيزة– مصر ٢٠٠٦م.

يعني أنهم أجزاء مِن آلهة، وجاء في إنجيل متى عن المسيح:(فأجابَهُ بُطرُس وقالَ:"يا سيدُ، إن كُنتَ أنتَ هو، فمُرني أن آتيَ إليكَ على الماءِ". فقالَ:" تعالَ". فنزلَ بُطرُس مِن السفينةِ ومشى على الماءِ ليأتيَ إلى يسوعَ. ولكن لّما رأى الرِيحَ شديدةً خافَ. وإذ ابتدأ يغرقُ، صرخَ قائلًا:" يا ربُ نجّني!". ففي الحالِ مدّ يسوعُ يدَهُ وأمسكَ بهِ وقالَ لهُ:" يا قليلَ الإيمانِ، لماذا شككتَ؟")[١].

ومِن هذه الغيبيات التي نصّت عليها الأناجيلُ أنّ الله أطلعَ المسيح– عليه السلام– على موقفه –عليه السلام– يوم القيامة مِن أتباعه ومِن خصومِه، نقل متى في إنجيلِهِ عن المسيح قوله لتلاميذه:(فإنّ ابنَ الإنسانِ سوفَ يأتي في مجدِ أبيهِ مع ملائكتِهِ، وحينئذٍ يُجازي كلَ واحدٍ حسَبَ عمَلِهِ. الحقّ أقولُ لكم: إنّ مِن القيامِ ههنا قومًا لا يذوقونَ الموتَ حتى يرَوا ابنَ الإنسانِ آتيًا في ملكوتِهِ")[٢]، وقد نصّ متى على أنّ المسيح قد استخدم لفظ "ابن الإنسان" ليس فقط لأنّ الأمر فيه رفعة للمسيح بل أيضًا لأنّ الأمر فيه إخبار بالغيب الذي أطلع اللهُ المسيحَ عليه، وقد أكدت بعض الأناجيل على الأمر ذاته[٣]، وجاء في إنجيل متى أيضاً عن المسيح:(وسأله تلاميذه قائلينَ:" فلماذا يقول الكتبةُ: إنّ إيليّا ينبغي أن يأتيَ أوّلًا؟". فأجابَ يسوعُ وقالَ لهُم:" إنّ إيليّا يأتي أوّلًا ويرُدُ كُلَ شيءٍ. ولكنّي أقولُ لكم: إنّ إيليّا قد جاءَ ولم يعرفوهُ، بل عمِلوا به كُلَ ما أرادوا. كذلكَ ابنُ الإنسانِ أيضًا سوفَ يتألمُ

(١) مت ١٤: ٢٨– ٣١.
(٢) مت ١٦: ٢٧– ٢٨.
(٣) راجع : مر ٨: ٣٨، مر ٩: ١.

منهم")[١]، وفي هذه الرواية ينصّ الإنجيل على أنّ المسيح قرنَ بين الإخبار بأمرٍ غيبيّ وبين استخدامه لمصطلح "ابن الإنسان"، وهو الأمر الذي تكرر أيضًا في بعض الأناجيل وبنفس الطريقة![٢]، وجاء في إنجيل متى على لسان المسيح وهو يحدّث التلاميذ ببعض أمور الآخرة وعلامات نهاية الزمان:(حينئذٍ إن قالَ لكم أحدٌ: هُوَذَا المَسِيحُ هُنَا! أو: هُنَاكَ! فلا تُصدّقوا. لأنّه سيقومُ مُسحاءُ كذَبَةٌ وأنبياءُ كذبَةٌ ويُعطونَ آياتٍ عظيمةً وعجائبَ، حتى يُضِلوا لو أمكنَ المُختارِينَ أيضًا. ها أنا قد سبقتُ وأخبرتُكم. فإن قالوا لكم: ها هو في البرية! فلا تخرجوا!. ها هو في المخادِعِ! فلا تُصدّقوا. لأنّه كما أنّ البرقَ يخرجُ مِن المشارِقِ ويظهَرُ إلى المغارِبِ، هكذا يكونُ أيضًا مجيءُ ابنِ الإنسانِ)[٣]، وقد أثبتَ متى عند روايته لهذه الواقعة[٤] ما سبق وأكّدت عليه النُصوص المنقولة عن المسيح بأنّه- عليه السلام- حرص على وصف نفسه بابن الإنسان عند وقوع المعجزات والإخبار ببعض الغيبيات.

ومِن الجديرِ بالذِكرِ أنّ الأناجيل أكدت على بعض المُعجزات والتي تشهد بأنّ المسيح لم يكن يعلمُ الغيب! ومِن ذلك ما جاء في الأناجيل تحت عنوان "إشباع الخمسة الآلاف رجل"[٥]، فعلى الرغم مِن أنّ الرواية وردت في سياق المعجزات

(١) مت ١٧: ١٠- ١٢.
(٢) راجع: مر ٩: ١١- ١٣.
(٣) مت ٢٤: ٢٣- ٢٧.
(٤) ليس متى فقط بل مرقس أيضًا في ١٣: ١٩- ٢٦، و لو٢١: ٢١- ٢٧.
(٥) مت ١٤: ١٣- ٢١، و مر٦: ٣٠- ٤٤، و لو ٩: ١٠- ١٧، و يو ٦: ١- ١٤.

إلا أنها تشهد بأنّ المسيح– عليه السلام– لم يكن يعلمُ الغيب، فلو كان يعلمه لأعدّ لهذا العدد ما يُطعمهم به، ولَمَا طلبَ مِن التلاميذ أن يُطعموهم وليس مع التلاميذ ما يُطعِم هذا العدد الكبير، بل هي أمورٌ غابَت عن المسيح– عليه السلام– وإلا لكانَ أمرُه للتلاميذ بها ضربًا مِن العبث! بل إنّ ظهور المعجزات على أيدي البشر هو دليل واضح على إخلاص عبوديتهم لله وقوة إيمانهم بوحدانيته– سبحانه– والدليل على ذلك ما نسبته الأناجيل للمسيح– عليه السلام– من توجيهات عند إتيانه بالمعجزات حيث قال:(الحق الحق أقول لكم: مَن يؤمنُ بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعملُ أعظمَ منها، لأني ماضٍ إلى أبي)[١]، وقال أيضًا:(الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: لا يقدرُ الابنُ أن يعملَ من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآبَ يعملُ)[٢]، وقال كذلك لتلامذته: (لو كان لكم إيمانٌ مثل حبةِ خردلٍ لكنتم تقولونَ لهذا الجبل: انتقِل مِن هُنا إلى هُناكَ فينتقِلُ، ولا يكونُ شيءٌ غيرَ مُمكنٍ لديكم)[٣].

وعلى الرغم مِن أنّ المسيح– عليه السلام– قد أطلعه الله – عز وجل– على بعض الأمور الغيبية شأنه شأن سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين إلا أنّه– عليه السلام– وقف عند حدود ما علمه الله وكان شأنّه شأن العالَمين في عِلم قيام الساعة، والتي اقتضت حكمة المولى– عز وجل– ألا يعلمها نبي ولا ملك ولا

(١) يو ١٤: ١٢.
(٢) يو ٥: ١٩.
(٣) مت ١٧: ٢٠.

غيرهم إلا الله رب العالمين، جاء في إنجيل متى على لسان المسيح وهو يحدّثُ التلاميذ عن أحوالِ الآخرةِ وعن قيام الساعة :(وأمّا ذلك اليومُ وتِلكَ الساعةُ فلا يعلمُ بِهِمَا أحَدٌ، ولا ملائكةُ السماوات، إلا أبي وحدَهُ)[١]، ثم جاء في إنجيل مرقس:(وأمّا ذلكَ اليومُ وتلكَ الساعةُ فلا يعلمُ بِهمَا أحدٌ، ولا الملائكةُ الذينَ في السماءِ، ولا الابن، إلا الآبُ)[٢].

وهكذا وضح مِن خلال ما نقلته الأناجيل على لسان المسيح- عليه السلام- أنّه كان يعلم بعض أحوال الغيب التي أطلعه الله- عز وجل- عليها، وأنّه كان كثيرًا ما تخفى عليه بعض الأمور التي لم يشأ الله أن يُعلِمها المسيح، وأكبر دليلٍ على ذلك أنّه -عليه السلام- اشترك مع سائر المخلوقات في الجهل بموعد قيام الساعة، ليبقى هذا أصدق دليل على لسان المسيح ببشريته وعدم علمه بالغيب المُطلق.

(١) مت ٢٤: ٣٦.
(٢) مر ١٣: ٣٢.

المطلب الثالث
المسيح ينصّ في الأناجيل على أنه بشر يكتنفه ما يكتنف غيره مِن أحوال البشر.

تبيّن مما سبق ذِكره مِن أحاديث للمسيح– عليه السلام– عن نفسه وعن دعوته أنه لم يكن يرى نفسَه إلهًا ولا جزءًا مِن إلهٍ، بل أكّد–عليه السلام– مِن خلال ما تناقلته الأناجيل عنه مِن أفعالٍ وأقوالٍ أنّه رسولٌ أرسله ربه– جل وعلا– ليبلغ رسالة التوحيد لبني إسرائيل، وأنّه إنسانٌ عاديّ وبشَر ينطبق عليه ما ينطبق على سائر البشر مِن التعبد لله رب العالمينَ والتعب والشعور بالجوع، يقول متى عن المسيح:(فبعدَ ما صامَ أربعينَ نهارًا وأربعينَ ليلةً، جاعَ أخيرًا)[١]، وقال لوقا:(أمّا يسوعُ فرجعَ مِن الأردنِ مُمتلئًا مِن الروحِ القُدُسِ، وكانَ يُقتَادُ بالروحِ في البريّةِ أربعينَ يومًا يُجرّبُ مِن إبليسَ. ولم يأكُل شيئًا في تلكَ الأيامِ. ولّما تمّت جاعَ أخيرًا)[٢]، وقصّت الأناجيل أنّه– عليه السلام– مولودٌ وحدّدت المكانَ والزمانَ اللذانِ وُلِدَ فيهما، قال متى:(ولّما وُلِدَ يسوعُ في بيت لحم اليهوديّةِ، في أيّامِ هيرودُس الملِك، إذا مجوسٌ مِن المشرِقِ قد جاءُوا إلى أورشليمَ)[٣]، وقال لوقا وهو يروي قصة ميلاد المسيح:(فصعَدَ يوسفُ أيضًا مِن الجليلِ مِن مدينةِ النّاصرةِ إلى

(١) مت ٤: ٢.
(٢) مر ٤: ١– ٢.
(٣) مت ٢: ١.

اليهوديّةِ، إلى مدينةِ داود التي تُدعَى بيتَ لحمٍ، لكونهِ مِن بيتِ داودَ وعشيرتِهِ، ليُكتَتَبَ مع مريمَ امرأتِهِ المخطوبةِ وهي حُبلَى. وبينما هُما هُناك تمّت أيامُهّا لتلِدَ. فولدت ابنَها البكرَ وقمّطتهُ وأضجعتهُ في المِذوَدِ، إذ لم يكُن لهما مَوضِعٌ في المترِلِ)[١]، فالإنجيل ينصّ على أنّ مريم كانت مخطوبةً وحُبلى وأنّها ولدت المسيح ووضعته في المذود، وكلها مِن أحوال البشر التي لا تليق بمقام الألوهية!

وقد نقلت الأناجيلُ الكثير مِن أحوالِ المسيحِ التي لا تليق إلا ان تكونَ لبشرٍ كالتحوّل والانتقال والسكَن في أماكن بعينها، قال متى:(ولّما سمِعَ يسوعُ أنّ يوحنّا أُسلِمَ انصرفَ إلى الجليلِ. وترَكَ النّاصرةَ وأتى فسكنَ في كفر ناحوم التي عندَ البحرِ في تخومِ زَبُولونَ ونَفتَاليمَ)[٢]، والذي انصرف وترك وسكنَ بالطبع ليسَ إلهًا، وجاء في إنجيل متى:(حينئذٍ جاء يسوعُ مِن الجليلِ إلى الأردنِ إلى يوحنا ليعتَمِدَ منه. ولكن يوحنّا منعَهُ قائلاً:" أنا مُحتاجٌ أن أعتَمِدَ مِنك، وأنتَ تأتي إليّ!". فأجابَ يسوعُ وقالَ لهُ:" اسمحِ الآنَ، لأنّهُ هكذا يليقُ بنَا أن نُكمّلَ كُلَ بِرٍ". حينئذٍ سمَحَ لهُ. فلمّا اعتَمَدَ يسوعُ صعِدَ للوقتِ مِن الماءِ، وإذا السماواتُ قد انفتَحَت لهُ، فرأى روحَ اللّهِ نازلًا مِثلَ حمامةٍ وآتيًا عليه)[٣]، فالذي جاءَ ليعتَمِدَ مِن غيرِه ويُعتَرضُ على رأيه ويُمنَع ويترِلُ عليه الملَك ليس إلهًا وليس به شبهة ألوهية، والسؤالُ الآن عن مكانة المسيح ووضعه في الفترة التي عاشها قبلَ أن يعتمد وقبل

(١) لو ٢: ٤- ٧.
(٢) مت ٤: ١٢- ١٣.
(٣) مت ٣: ١٣- ١٦.

أن يترلَ عليه الوحي، كيف يمكنُ وصفها؟ وتحت أي عنوانٍ تُوضَع؟ يقول صاحب الفارق:(هذا صريحٌ في أنّ المسيحَ – سلامُ اللهِ عليه– بشرٌ مخلوقٌ للهِ تعالى، وأنّه قبل أن يأتي إلى يوحنا المعمدان لم يكن الوحي يترلُ عليه، وأن أول ما نزل عليه من الوحي بواسطة روح الله أي جبريل؛ لأنّ الله تعالى سمّاه بذلك كما تشهد به كتبهم)[١] وجاء في إنجيل مرقس:(وفي تلكَ الأيامِ جاءَ يسوعُ من ناصِرةِ الجَليلِ واعتَمَدَ مِن يُوحنا في الأُردن. وللوقتِ وهُوصَاعِدٌ مِن المَاءِ رأى السماواتِ قد انشقت والروحَ مِثلَ حَمَامَةٍ نازلًا عليهِ)[٢]، وجاء في إنجيل لوقا:(ولّما اعتمدَ جميعُ الشعبِ اعتمدَ يسوعُ أيضًا. وإذ كانَ يُصلّي انفتحَتِ السمَاءُ، ونزلَ عليهِ الروحُ القُدُسُ بهيئةٍ جسميّةٍ مِثلِ حمامةٍ، وكانَ صوتٌ مِن السماءِ قائلًا:" أنت ابني الحبيب، بك سُررتُ")[٣]، وجاءَ في إنجيلِ يوحنا:(وشهِد يوحنا قائلًا:" إنّي قد رأيتُ الرُوحَ نازلًا مِثلَ حَمَامَةٍ مِن السماءِ فاستقَرَ عليهِ. وأنا لم أكن أعرفُهُ، لكنّ الذي أرسلني لأُعمّدَ بالماءِ، ذاكَ قالَ لي: الذي ترى الروحَ نَازلًا ومُستَقِرًا عليهِ، فهذا هو الذي يُعمّدُ بالروحِ القُدُسِ. وأنا قد رأيتُ وشهِدتُ أنّ هذا هو ابنُ الله)[٤].

وشهدَت الأناجيلُ وهي تروي أنباء المسيح أنّه كان يمشي عندَ البحرِ ويقوم بتعليمِ النّاسِ ودعوتهم لا إلى عبادته بل إلى عبادة الله– عز وجل– وأنّه كان

(١) راجع: "الفارق بين المخلوق والخالق"، ص٤٣.
(٢) مر ١: ٩– ١٠.
(٣) لو ٣: ٢١– ٢٢.
(٤) يو ١: ٣٢– ٣٤.

ينتقلُ ويجتازُ ويصعَدُ الجبلَ ويجلسُ ويفتحُ فاه بالبشارات ويُكمّل سلسلة الأنبياءِ، والذي تصدُرُ منه مثل هذه الأحوال لا يُعقَلُ أن يكونَ إلهًا ولا جُزءًا من إله!

ونظرًا لإقرار الأناجيل لبشريته- عليه السلام- فإنّها تنقل أنّ كلامَه وأفعاله كانا يُصيبان المخاطبين دومًا بالدهشةِ والتعجبِ، ولو كان يدّعي الألوهية لنفسه أو ينظر إليه معاصروه على أنّه جزء مِن إله لما وقع هذا العجب وتلك الدهشة، جاء في إنجيل متى:(فلمّا أكمل يسوعُ هذهِ الأقوالَ بُهِتَت الجموعُ مِن تعليمِهِ، لأنّه كان يُعلّمُهُم كمن له سلطانٌ وليسَ كالكتبة)[١]، وجاء فيه أيضًا بعد ذِكر معجزة شفاء المشلول:(فلما رأى الجموعُ تعجّبوا ومجّدوا اللّه الذي أعطى النّاسَ سُلطانًا مِثلَ هذا)[٢]، وقال مرقس عن المشلول:(فقامَ للوقتِ وحَمَلَ السريرَ وخرجَ قُدّامَ الكُلِّ، حتى بُهِتَ الجميعُ ومجّدوا اللهَ قائلينَ:" ما رأينا مِثلَ هذا قَطُّ!")[٣]، وقال لوقا عن نفس الواقعة:(فأخذتِ الجميعَ حَيرةٌ ومجّدوا اللّهَ، وامتلأُوا خَوفًا قائلينَ:" إنّنا قد رأينا اليومَ عجائبَ!")[٤]، وعلى الرغم مِن وقوع الحيرة والدهشة والعجب إلا أنّ أحدًا لم يُمجّد المسيح بل مجّد الجميعُ ربَّ العالمين- عز وجلّ-.

(١) مت ٧: ٢٨- ٢٩
(٢) مت ٩: ٨.
(٣) مر ٢: ١٢.
(٤) لو ٥: ٢٦.

وقال مرقس في قصة إقامة ابنة يايرس:(وأمسكَ بيدِ الصبيّةِ وقالَ لها:" طليثا، قومي!". الذي تفسيرهُ: يا صبيّةُ، لكِ أقولُ: قُومِي! وللوقتِ قامَت الصبيّةُ ومَشَت،لأنّها كانت ابنة اثنتي عَشرةَ سَنَةً،فبُهِتوا بَهَتًا عظيمًا)[١]، وقال لوقا عن نفس الحادثة:(فأخرجَ الجميعَ خارجًا، وأمسَكَ بيدِها ونادى قائلًا:" يا صبيّة، قومي!". فرجعت رُوحُها وقامَت في الحال. فأمَر أن تُعطَى لتأكُلَ. فبُهِتَ والِداهَا. فأوصاهُمَا أن لا يقولا لأحدٍ عمّا كان)[٢]، وقال مرقس عن شفاء إنسانٍ به روحٌ نجس:(فمضى وابتدأ يُنادي في العَشر المُدنِ كم صنعَ به يسوعُ. فتعجّب الجميعُ)[٣]، ودوّن متى عن شفاء أخرس بعد شفاء أعميين:(وفيما هُما خارجانِ، إذا إنسانٌ أخرسُ مجنونٌ قدّموهُ إليهِ. فلمّا أُخرِجَ الشيطانُ تكلّمَ الأخرس، فتعجّبَ الجُمُوعُ قائلينَ:"لَم يظهَر قطُ مِثلُ هذا في إسرائيلَ")[٤]، وقال مرقس:(وللوقتِ انفتحت أُذنَاهُ، وانحلّ رِباطُ لسانِهِ، وتكلم مُستقيمًا. فأوصاهُم ألا يقولوا لأحدٍ. ولكن على قدر ما أوصاهُم كانوا يُنادُونَ أكثرَ كثيرًا. وبُهِتوا إلى الغايةِ قائلينَ:" إنّه عَمِلَ كُل شيءٍ حسنًا! جعلَ الصُمّ يسمعونَ والخُرسَ يتكلمونَ")[٥].وجاء في إنجيل متى عن المسيح:(فجاء إليه جموعٌ كثيرةٌ، معهم عُرجٌ وعُميٌ وخُرسٌ وشُلٌ

(١) مر ٥: ٤١– ٤٢.
(٢) لو ٨: ٥٤– ٥٥.
(٣) مر ٥: ٢٠.
(٤) مت ٩: ٣٢– ٣٣.
(٥) مر ٧: ٣٥– ٣٧.

وآخرونَ كثيرونَ، وطرحوهم عند قدمَي يسوعَ. فشفاهُم حتى تعجّبَ الجُموعُ إذ رأوا الخُرسَ يتكلمونَ. والشُلّ يصحونَ، والعُرج يمشونَ، والعُمي يبصرونَ. ومجّدوا إله إسرائيل)[١]، وقال متى أيضًا عن محاورة المسيح للصدوقيين أمام جمعٍ مِن النّاس:(فلمّا سمِعَ الجُمُوعُ بُهِتُوا مِن تعليمِه)[٢]، ولو كانوا يرونه إلهًا لَما بُهِتُوا.

وكان العجب يبلغ ذروته عند هؤلاء حينما كان–عليه السلام– يُحيي الموتى بإذن الله، ولو كان يدّعي الألوهية لَما كان للعجب والدهشة موضعٌ، قال لوقا عند ذِكره لمعجزة إقامة أحد الأموات:(فأخذ الجميعَ خوفٌ، ومجّدوا الله قائلينَ:" قد قامَ فينا نبيٌّ عظيمٌ، وافتقدَ اللهُ شعبه)[٣]، وقال أيضًا عن شفاء أعمى في أريحا:(وفي الحالِ أبصرَ، وتَبِعَهُ وهو يُمجّدُ الله. وجميعُ الشعبِ إذ رأوا سبّحوا الله)[٤]، وقال أيضًا:(ولّما قرُبَ عندَ مُنحَدرِ جبلِ الزيتونِ، ابتدأَ كُلُ جُمهورِ التلاميذِ يفرحونَ ويُسبّحونَ اللهَ بصوتٍ عظيمٍ، لأجلِ جميعِ القُوّاتِ التي نظَروا)[٥]، نظَروا)[٥]، وقال متى عن مُعجزة تيبُس شجرة التين:(فلمّا رأى التلاميذُ ذلك تعجّبوا قائلين:" كيف يبِستَتِ التّينةُ في الحالِ)[٦]، ونقل مرقس في إنجيله تعجّب

(١) مت ١٥: ٣٠– ٣١.
(٢) مت ٢٢: ٣٣.
(٣) لو ٧: ١٦.
(٤) لو ١٨: ٤٣.
(٥) لو ١٩: ٣٧.
(٦) مت ٢١: ٢٠.

بطرس في نفس الواقعة فقال:(وفي الصباحِ إذ كانوا مجتازينَ رأوا التينةَ قد يبِسَت مِن الأصولِ، فتذكّرَ بطرس وقالَ لهُ: يا سيدي، انظر! التّينةُ الـتي لَعَنتَهـا قـد يَبِسَت!" وللقارئ أن يلحظ علامَتَي التعجب اللتان وضعهما المترجم بعد "انظر"، و"قد يبست" ليتبين لنا مدى الدهشة وشدة التعجب مما رأى بطـرس والتلاميـذ، والأمر بالنسبةِ للتلاميذ يختلف عن غيرهم، فمِن المتفق عليـه أنهـم أدرى النـاس بالمسيح وألصقهم به وأعلمهم بطبيعته وحقيقته، ولو كان عندهم صاحب طبيعـةٍ تزيد عن البشرية لعلموا ولَمَا تعجبوا عند وقوع المعجزات.

ولم يكن هذا العجب قاصرًا على التلاميذ ولا على الذين يُعالجهم المسيح بل تخطى هؤلاء لينال خصوم المسيح أيضًا مِن كهنةٍ وغيرهم، جاء في إنجيل مـتى:(ولّما جاء إلى الهيكلِ تقدّمَ إليهِ رؤساءُ الكهنةِ وشيوخُ الشعبِ وهو يُعلّمُ، قـائلين:" بأي سُلطانٍ تفعَلُ هذا؟ ومَن أعطاكَ هذا السُلطانَ؟")[1]، ولم يسأله هؤلاء هل أنت إله؟ أو هل بك جزء مِن اللاهوت؟ بل سألوه: مَن أعطاك هذا السلطان؟ لِعلمهـم أنّه ليس بإلهٍ، وأنه لم يدّعي ذلك، وأنّه بشرٌ يدّعي النبوةَ فحسـب شـأنه شـأن موسى– عليه السلام– وسائر أنبياء بني إسرائيل.

وفي سياق بشريته –عليه السلام– نقلت الأناجيل على لسانه أنه سـيموت ويُكفّن شأنه شأن سائر البشر، قال متى على لسان المسيح عن المرأة التي سـكبت الطِيب على المسيح:(فإنّها إذ سكَبَت هذا الطّيبَ على جسدي إنّما فعلت ذلـكَ

(١) مت ٢١: ٢٣، وراجع أيضًا: مر١١: ٢٧– ٢٨، و لو٢٠: ١– ٢.

لأجل تكفيني)[١]، وقال مرقس على لسان المسيح أيضًا عن نفس المرأة:(عَمِلَت ما عندها. قد سبَقَت ودَهَنَت بالطّيبِ جسدي لِلتكفينِ)[٢]، وفي إنجيل يوحنا:(فقال يسوعُ:" اتركوها! إنّها ليومِ تكفيني قد حَفِظَته)[٣]، فالذي يتحدث عن نفسه ويقول "لأجل تكفيني" و "ليوم تكفيني" ليس إلهًا وليس به شبهة ألوهية، وهل يُعقَل أن يُكفّن الإله أو مَن به شبهة ألوهية؟! والذي قالت عنه الأناجيل أنّه أكل وشرب مع التلاميذ، وأنّه تضرع إلى ربه لينجيه مما يُعده اليهود له، وأنّ اليهود قبضوا عليه وحاكموه وأنّ الجنود سخروا منه وأنّه صُلِبَ وكُفّن ودُفِنَ وقام بعد ذلك مِن قبره، لا يُعقَل إلا أن يكون بشرًا خالص البشرية!

(١) مت ٢٦: ١٢.
(٢) مر ١٤: ٨.
(٣) يو ١٢: ٧.

المبحث الثالث
البنوة في النصرانية و حديث المسيح -عليه السلام- عنها في الأناجيل.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البنوة في النصرانية.
المطلب الثاني: حقيقة البنوة في الأناجيل ومعناها.
المطلب الثالث: موقف المسيح في الأناجيل من البنوة.

تمهيد

وضح مما سبق بيانه مِن أحاديث المسيح عن نفسه وعن طبيعة دعوته- عليه السلام- في الأناجيل أنّه لم يكن يرى نفسه إلا بشرًا رسولا مُعلّمًا هاديًا نبيًّا يُقارِن نفسه بالأنبياء ويعبد ربه- جل وعلا- ويحفظ وصاياه- سبحانه- وأوامره ويُطبقها و يُربي تلاميذه عليها و يشفي المرضى بإذن الله- عز وجل- وأنه إنسان وابن إنسان لا يعلم الغيب وإنّما يكتنفه ما يكتنف غيره مِن أحوال البشر مِن جوعٍ وعطشٍ وتعبٍ وراحةٍ ونومٍ وحُزنٍ وفرحٍ وتَسلُّط الظالمين عليه وموت وتكفين، هكذا كان يرى نفسه وهكذا كان يراه سائر المعاصرين له.

ومع وضوحِ ذلك فقد اتخذ النصارى منحى آخر تجاه اعتقادهم في المسيح، قام هذا الاعتقاد على بعض الإشارات في الأناجيل على لسان المسيح وعلى لسان غيره قد يُفهَم منها أنّ المسيح يضع نفسه في مكانةٍ أعلى من البشرية والنبوة والرسالة، وعلى ندرة هذه الإشارات وما تحتمله مِن أوجه كثيرة يُمكنُ صرفها إليها إلا أنّ النصارى اتفقوا على صرفها إلى ما يؤيد توجههم واعتقادهم في ألوهية المسيح.

ويأتي هذا المبحث ليقف مع هذا الجانب مِن أحاديث المسيح والتي قد يُفهَم مِنها أنّه صاحب طبيعةٍ تزيد على البشرية والنبوة فيُناقش مفهوم البنوة لا من منظورٍ إسلاميّ بل من منظور الأناجيل، ويُناقش أيضًا مدلول لفظة البنوة في الأناجيل، ووصف المسيح لنفسه بالبنوة، وهل يرتقي هذا الوصف لمرتبة البنوة

الحقيقية الناتجة عن تولد فرعٍ عن أصل؟ وهل يقوى ليُقارَن بأوصاف العبودية والبشرية والنبوة التي ثبت أنّ المسيح وصف بها نفسه؟

المطلب الأول
البنوة في النصرانية

قبل أن نخوض في حديث المسيح عن نفسه في شأن البنوة يحسن بنا أن نُلقي نظرةً سريعةً على عقيدة النصارى في المسيح ونترك لهم المجال كي يتحدثوا عن عقيدتهم بكل استفاضة، يقول صاحب "سوسنة سليمان" عند حديثه عن المسيحيين:(ويجمعهم في الاعتقاد دستور إيمانهم المُلخص مِن الإنجيل وهو هذا: نؤمن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكل خالق السماء والأرض كل ما يُرى وما لا يُرى وبربٍ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور مِن نور إله حق مِن إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنّس. وصُلب عنا على عهد بيلاطس النبطيّ وتألم وقُبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب. وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب. وأيضًا يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه)[1]،

(١) راجع " سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان" لـ "نوفل بن نعمة الله بن جرجس"، ص١٣٦، ١٣٧، طبعة بيروت ١٨٧٦م.

ومعروفٌ عند النصارى قبل غيرهم غموض هذه العقيدة ومخالفتها للعقل والمنطق، يقول الجاحظ:(ولو جهدتَ بكل جهدك، وجمعتَ كل عقلِك أن تفهم قولهم في المسيحِ، لما قدرت عليه، حتى تعرف به حد النصرانية، وخاصة قولهم في الإلهية، وكيف نقدر على ذلك؟ وأنت لو خلوت ونصرانيًا نسطوريًا فسألته عن قولهم في المسيح لقال لك قولًا، ثم إن خلوتَ بأخيهِ لأمه وأبيه وهو نسطوريّ مثله، فسألته عن قولهم في المسيح، لأتاك بخلاف قول أخيه وضده.. وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية، ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية، كما نعرف جميع الأديان)[1].

ولقد اعترف النصارى أنفسهم بالمبالغة في شخص المسيح الذي لا يعدو أن يكون شخصًا بسيطًا عاديًّا، وباضطراب الأناجيل في سائر موضوعاتها بصفةٍ عامّة وفيما يتعلق بشخص المسيح بصفةٍ خاصة، يقول شارل جينيبر عن أصحاب الأناجيل أنهم:(كانوا على يقين مِن أنّ عيسى الناصريّ هو المسيح الذي وعدت به إسرائيل، وأنّه يجلس إلى جانب الرب في السماء. مرتقبًا الساعة. ودفعهم هذا اليقين إلى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعه... ودفعهم كذلك إلى أن يستخرجوا التعاليم والتنبؤات من أقل الحوادث والأحاديث شأنًا، وأن يطبقوا على أستاذهم كل نصوص التوراة التي قيل أنها تتعلق برسول يهوه المبارك الموعود... وهكذا كان خيالهم، بدافع التقوى، يزين الأحداث ويصبغها في إطار

(١) راجع " المختار في الرد على النصارى"، لـ "عمرو بن بحر الجاحظ"، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، الطبعة الأولى، ص٢٢، ٢٣، الناشر: مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

من التعليقات والإضافات التي يفرضها إيمانهم- بطريقة ما- وكأنها من لوازم سيرة عيسى، وكأنها حقيقة لا شك فيها، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبي المنتظر. واسترسلوا في سذاجتهم وبساطة مشاعرهم، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات الحقيقية... ولقد خلطوا بينهما في تلك التعاليم التي نشروها من حولهم وأصبح أتباعهم لا يستطيعون التمييز- حتى ولو أرادوا- بين واقع الأحداث وما أضفاه عليها الإيمان من صور شتى. وكان تحمسهم للعقيدة لا يدع لهم مجالًا لمقاومة ما توحي به الرؤى والتهيئات الفردية... وكانت هذه الكتيبات- وأهمها مجموعة الأحاديث المنسوبة إلى متى والروايات المنسوبة إلى مرقس- المصادر الأولى لأناجيلنا. إلا أنها لم تكن لتضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كما تصورها المسيحيون عندما أوشك جيل أصحابه على الانقراض... وتصفح الأناجيل وحده يكفي لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى "تركيبات" واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية، ولم يستلهموا تاريخًا ثابتًا يفرض تسلسل حوادثه عليهم، بل على العكس من ذلك: اتبع كل هواه وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلَّفه. ولا شك أيضًا في أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح)[1].

(١) راجع "المسيحية. نشأتها وتطورها" لـ "شارل جنيبير"، ترجمة وتعليق الإمام الأكبر"عبد الحليم محمود"، ص٢٦ وما بعدها باختصار، طبعة المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ.

ونتيجةً لاضطراب معنى البنوة عند النصارى فإنّ بعض علمائهم يرى أنّ لفظة "ابن الله" هي من أساسها مجرد خطأ لغوي فاحش! يقول شارل جينيبر:(والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر. ولم يقل عن نفسه أنه "ابن الله"، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل– بالنسبة إلى اليهود– سوى خطأ لغوي فاحش وضرب من ضروب السفه في الدين. كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير "ابن الله" على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع، وقد وجدا فيها معاني عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليهما... ولا زال من الطبيعي أن نعجب من عدم توضيح عيسى لهذه المسألة الأساسية، ولا زال في الإمكان أن ننظر إلى التصريحات الغامضة أو الإشارات التي تنسبها إليه النصوص، على أنها من صنع المحررين،... وأخيرًا، فلعلنا لا نغرق في الظن إن قلنا: إن حب الحواريين لأستاذهم وثقتهم فيه كانا كفيلين بإحداث التهيؤات التي أدت إلى غرس الإيمان الأكيد ببعثه في نفوسهم. وقد جاء الاعتقاد بأنه أصبح "مسيحا بإرادة الله")[1].

وقد أنكر بعض علماء النصرانية على مدار تاريخها عقيدة التثليث لعدم قدرتهم على تصور هذه البنوة، جاء في كتاب "الميزان في مقارنة الأديان":(ولّما

(١) المرجع السابق، ص ٣٩ وما بعدها باختصار.

ظهرت الحركة المعادية للتثليث سلكت سبيلها إلى كنائس مذهب الإصلاح الديني، وظهر هناك العلامة الطبيب الدكتور(جورجيو بينداراانا) وقد كان أستاذًا في جامعة بونتيليه، ثمّ طبيب البلاط للملكة بونا، هذا العالِم الكبير رفض عقيدة التثليث وجاهد في ذلك حتى أصبح رئيسًا لتلك الحركة في سنة ١٥٥٨م. ولّما عُقد مجمع بيترو عام ١٥٦٢م كان أعداء عقيدة التثليث أغلبية فيه، فلم يستطع القسس أنصار عقيدة التثليث أن يدافعوا عنها إلّا بالعبارات المدرجة عنها بالكتب الكنسية. وفي سنة ١٦٠٥م أصدرت هذه الحركة المعادية للتثليث إعلانًا تقول فيه الآتي: الله واحد في ذاته، وإن المسيح إنسان حقيقيّ ولكن ليس مجرد إنسان، وإن الروح القدس ليس أقنومًا، لكنه قدرة الله... وفي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فإن المطابع الهولندية طبعت كتبًا ورسائل تعبر عن وجهات نظر تحريرية ضد عقيدة التثليث، ما كان أحد ليجرؤ على نشرها خارج هولندا... وقرب منتصف القرن التاسع عشر صارت مدينة ليدن بالتحديد، وخاصة جامعتها مركز الدعوة للحرية الدينية في هولندا... ويبدو أن مما ساعد على نمو عقيدة التوحيد أن المزاج العادي لسكان شمال هولندا لا يميل إلى عقيدة التثليث رغم قبولها نظريًا، لكنها في الممارسة تعرضت لتعديلات أساسية، فنجد (توماس أكمبيس) يبيّن في كتابه (على خطى المسيح) التناقض الذي يقع عند الحديث عن المسيح باعتباره الأقنوم الثاني في الثالوث، ثمّ يطلب إلى الإنسان العاديّ أن يسير على نهجه فهو يقول:(إذا كان

المسيح إلهًا فإن المرء لا يستطيع اقتفاء أثره والسير على نهجه))[١]، والأمر أقدم مِن مجمع بيترو ومن الحركة المعادية للتثليث، فهو يعود إلى أقدم مجامع النصـــرانية وإلى أقدم حركات التوحيد التي نبذت فكرة التثليث وألوهية المسيح منذ القرون الأولى للمسيحية، غير أنّ المجال لا يتسع لهذا السرد التاريخيّ المفصل، وحسبنا ما نقلنـــاه من نصوصٍ في هذا الشأن.

وفي مقابل هؤلاء العلماء ذهب البعض إلى تأويل معنى البنوة والعدول بها عن معناها المتداول عندهم إلى معانٍ أخرى،:(جاء في "محاضرات في النصرانية" على لسان "القس بوطر":(عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية، ولكنها تصف محبة سرية فائقة بين أقنوم وآخر في اللاهوت الواحد، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة في الذات، والأمانة للمشورة الإلهية، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها)[٢]، ونقل عن القس إبراهيم سعيد قوله:(يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد "بابن العلي" أو "ابن الله" فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا لقيل ولد الله، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعًا أنهم أبناء الله،

(١) راجع :"الميزان في مقارنة الأديان"، لـــ "محمد عزت الطهطاوي"، الطبعة الأولى، ص٣١٢ وما بعدها باختصار، الناشر: دار القلم- دمشق و الدار الشامية ببيروت ١٤١٣هـــ- ١٩٩٣م.

(٢) راجع:"محاضرات في النصرانية"، لـــ" محمد أبو زهرة"، الطبعة الثالثة، ص ٩٣، الناشر: دار الفكر العربي، مدينة نصر- القاهرة، ١٣٨١هـــ- ١٩٦١م.

لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها تفرقه في المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا في الجوهر، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله، وهي محبة متبادلة، وما المحبة التي بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا الله، وأطاع وصاياه، فقبل الموت موت الصليب، لذلك يقول الله فيه:" هذا ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا" وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تمم إرادة الله في الفداء، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات وفي الجوهر، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين، فقيل عن المسيح أنه بهاء مجد الله، ورسم جوهره)[1]، ويعلّق الشيخ محمد أبو زهرة على هذه النقول فيقول:(وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثاني طبيعتين ومشيئتين، ومن هذا نرى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث، وهذا هو موضع اتفاق، ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الإلهيّ في المسيح، أهو الجسد الذي تكوّن من الروح القدس ومن مريم العذراء الذي باختلاطه بالعنصر الإلهي صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة أم أن الأقنوم الثاني له طبيعتان ومشيئتان؟. ومِن هذا كله يُفهَم أن المسيحيين على اختلافهم يعتقدون أن في اللاهوت ثلاثة يعبدون، وعباراتهم تفيد بمقتضاها أنهم متغايرون وإن اتحدوا في الجوهر والقدم، والصفات، والتشابه بينهم كامل، ولكن كُتّابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعًا أقانيم لشئ واحد، وبعبارة صريحة

(١) المرجع السابق، ص ٩٣، ٩٤.

يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية)[١].

ومِن العجيب أن يجد الباحث في النصرانية هذا التفاوت الرهيب في أمرٍ يعدونه مِن أسس الدين وأصوله، مما يدفعنا إلى القول بأنّ المسيحية شيّدت أركانها على مجموعة من التخيلات والظنون التي لا يستطيع نصراني أن يقيم دليلًا يُثبتها ويؤكدها سواء كان هذا الدليل مِن المنقول أو من المعقول، والأشد عجبًا هو أن المسيح ما ذكر في الأناجيل إلا معاريض وإشارات غامضة تُحمَل على أوجه مختلفة، وأنه عدل في هذا الأمر الجلل الخطير عن التصريح إلى التلميح! ولكن هل يُغني التلميح لإثبات ركن أصيل في الديانة تسبب على مر تاريخها بوجود الخلاف والشقاق بل والتكفير والقتل باسم الدّين؟!

(١) المرجع السابق، ص ٩٤.

المطلب الثاني
حقيقة البنوة في الأناجيل ومعناها.

أفاضت الأناجيل في استخدام التشبيهات وأسلوب المجاز، سواء كان هذا الأسلوب على لسان المسيح أو على لسان غيره، وكان مِن أكثر أساليب المجاز شيوعًا فيها مصطلح البنوة وإطلاقه على العلاقة بين الإله وبين شخصيات الأناجيل البارّة، وقد مرّ استخدام هذا المصطلح بصورةٍ عابرةٍ في أسفار اليهود المُسمّاه بـ" العهد القديم"، كما مرّ بنفس الصورة مع سائر شخصيات الأناجيل عدا المسيح! فقد اتخذ النصارى مع هذا المصطلح في شأن المسيح إتجاهًا مُغايرًا نتيجةً لاعتقادهم في ألوهية المسيح، ومِن ثَمّ فقد قاموا بتأويل أسلوب المجاز على الحقيقة وحمّلوه مِن المعاني ما لا يحتمل، وبناءً على ذلك فقد أسسوا دينهم وشيّدوا نصرانيتهم! وقد تبين من خلال المبحث السابق مفهوم البنوة عند النصارى، ولكن هل كان مصطلح "ابن الله" في الأناجيل يشير إلى ما فهمه النصارى من تثليث وأقانيم وغيرها؟

حاول علماء النصارى عند تعاملهم مع مصطلح "ابن الله" أن يفصلوا بين بنوة المسيح وبين ما عداها من البنوات يقول "جورج بوست" في قاموس الكتاب المقدس: ("إبن الله" لقب من ألقاب الفادي ولا يُطلق على شخصٍ آخر سواهُ إلَّا حيث يستفاد من القرينة أن المقصود بالملقَّب غير ابن الله الحقيقي. وقد تسمَّت

الملائكة بني الله (أي ٣٨: ٧)[١] وأُطلِق هذا الاسم على آدم (لـو٣: ٣٨)[٢]، إذ إنه هو الشخص الأوّل المخلوق من الباري رأسًا. وقد تسمّى المؤمنون أبناء الله(رو٨: ١٤ و ٢كو٦: ١٨)[٣]، وذلك لأنهم أعضاء في عائلة الله الروحية. وأمّا إذا أُريد بهذا اللقب المسيح فيُذكَر مع التفخيم والعظمةِ حتى أن القارئ يعرف القصد منه بكل سهولة. وهذا اللقب يدل على طبيعة المسيح الإلهية كما أن القول بأنه "ابن الإنسان" يدل على طبيعته البشرية والمسيح هو ابن الله الأزليّ والابن الوحيد (قابل يو١: ١٨ و٥: ١٩– ٢٦ و٩: ٣٥– ٣٨ و مت ١١: ٢٧ و ١٦: ١٦ و ٢١: ٣٧ وآيات أخرى غير هذه في الرسائل)[٤]. ومع أنّ المسيحَ

(١) يقول النص المُشَار إليه:(عندما ترنّمت كواكبُ الصُّبحِ معًا، وهتَفَ جميعُ بني الله؟) سفر أيوب ٣٨: ٧.

(٢) يقول النص المُشَار إليه والذي يتناول نسب المسيح:(بن أنُوش، بن شِيتِ، بن آدَمَ، ابنِ الله).

(٣) يقول النص الأول المُشَار إليه :(لأنَّ كُل الذين ينقادونَ بروحِ الله، فأولئكَ هم أبناء الله) رسالة بولس الرسولِ إلى أهل رومية (٨: ١٤)، ويقول النّص الثاني:(وأكونُ لكم أبًا، وأنتم تكونونَ لي بنين وبناتٍ، يقولُ الربُ، القادِرُ على كل شيءٍ) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثورس ٦: ١٨.

(٤) تقول النصوص المُشَار إليها:(اللهُ لم يره أحدٌ قَط. الابنُ الوحيدُ الذي هُو في حِضنِ الآبِ هو خَبّرَ) يو ١: ١٨، و (فأجابَ يسوعُ وقال لهم:" الحقّ الحقّ أقولُ لكم: لا يقدرُ الابنُ أن يعملَ مِن نفسه شيئًا إلا ما ينظرُ الآبُ يعملُ. لأن مهما عمِل ذاك فهذا يعملُهُ الابنُ كذلكَ. لأنّ الآبَ يُحِبُ الابنَ ويُريهِ جميعَ ما هو يعمَلُهُ، وسيُريهِ أعمالًا أعظمَ من هذه

يأمرنا بأن ندعو الله "أبانا" فهو لا يدعوهُ كذلك إنما يدعوهُ "أبي" وذلك إيماءٌ لما هنالك من الألفة العظيمة والعلاقة الشديدة الكائنة بينهما مما تفوق علاقته كل علاقة بشريّة. وإشارةٌ إلى أننا نحن أولادهُ ليس على سبيل البنوّة التي للمسيح ربنا بل مِن قبيل البنوّة التي أنعم علينا بها بواسطة التبنّي والتجديد)[1]، ولنا مع هذا التصور الغريب لبنوة المسيح في الأناجيل وقفاتٌ عدة:

لتتعجبوا أنتم. لأنّه كما أنّ الآبَ يُقيمُ الأمواتَ ويُحيي، كذلكَ الابنُ أيضًا يُحيي مَن يشاءُ. لأنّ الآبَ لا يَدينُ أحدًا، بل قد أعطى كل الدينونةِ للابنِ، لكي يُكرِمَ الجميعُ الابنَ كمَا يُكرِمونَ الآبَ. مَن لا يُكرِمُ الابنَ لا يُكرِمُ الآبَ الذي أرسَلَهُ. الحقّ الحقّ أقولُ لكم: إنّ مَن يسمعُ كلامي ويؤمِنُ بالذي أرسلني فلهُ حياةٌ أبديّةٌ، ولا يأتي إلى دينونةٍ، بل قد انتقَلَ من الموتِ إلى الحياةِ. الحقّ الحقّ أقولُ لكم: إنّه تأتي ساعةٌ وهي الآن، حينَ يسمعُ الأمواتُ صوتَ ابن الله، والسّامعونَ يحيونَ. لأنّه كما أنّ الآب له حياةٌ في ذاتِه، كذلكَ أعطى الابن أيضًا أن تكونَ لهُ حياةٌ في ذاتِه) يو ٥: ١٩– ٢٦، و (فسمِع يسوعُ أنّهُم أخرجُوهُ خارجًا، فوجَدَهُ وقالَ لهُ:" أتؤمِنُ بابنِ الله؟" أجابَ ذاكَ وقالَ:" مَن هو يا سيّدُ لأومِنَ به؟" فقالَ له يسوعُ:" قد رأيتَهُ، والذي يتكلمُ معكَ هُو هُو!" فقالَ: "أومِنُ يا سيّدُ!". وسجَدَ لهُ) يو ٩: ٣٥– ٣٨، و (كُلُ شيءٍ قد دُفِعَ إليّ مِن أبي، وليسَ أحدٌ يَعرِفُ الابنَ إلا الآبُ، ولا أحدٌ يعرِفُ الآبَ إلا الابنُ ومَن أرادَ الابنُ أن يُعلِنَ لهُ) يو ١١: ٢٧، و (فأجابَ سِمعان بُطرس وقالَ:" أنتَ هو المسيحُ ابنُ الله الحيّ) مت ١٦: ١٦، و (فأخيرًا أرسلَ إليهم ابنَهُ قائلًا: يهَابُونَ ابني!) مت ٢١: ٣٧.

(١) راجع "قاموس الكتاب المقدس"، لـ "جورج بوست"، ج١/ ص١٣٥، ١٣٦، طبعة المطبعة الأمريكانية– بيروت ١٨٩٤م.

أولها: أنّ المقصود بلقب "ابن الله" لا يحتاج إلى قرينة، والذي يحتاج إلى قرينة هو اعتبار هذه البنوة في حق المسيح أمرًا زائدًا عن سائر البنوات الواردة في الأناجيل.

ثانيها: ذكَر جورج بوست أنّ الملائكة وآدم– عليهم السلام– والمؤمنين تسمّوا بلقب "أبناء الله"، وأنهم " أعضاء في عائلة الله الروحية" على حد تعبيره، فعلى أي أساسٍ قامت هذه العائلة؟ وما هو عدد أفرادها؟ إنّ الذين وُصِفوا بالبنوة كثير وليس آدم والملائكة فحسب، بل داود وسليمان وصانعوا السلام وجميع بني إسرائيل وغيرهم.

ثالثها: هل التفخيم والتعظيم في حق المسيح عند ذِكر لقب "ابن الله" في حقه– عليه السلام– يُفهَم منه البنوة الحقيقية الناتجة عن تولد الفرع عن الأصل؟ أليس هذا التفخيم طبيعيّ في حق الرسول الذي نزل عليه الوحي والذي يُعتبَر صاحب مهمة البلاغ في هذا الدين؟

رابعها: أنّ المبالغة والتعظيم المذكورَين استدل عليهما المؤلف بنصوصٍ واردةٍ في إنجيليّ متى ويوحنا، وفي هذَين الإنجيلَين ما فيهما من الجهالة والشك الثابت على ألسنة النصارى أنفسهم، يقول جورج بوست نفسه في نفس الكتاب عن إنجيل متى:(يُرجّح أنّ هذا الإنجيل كُتِبَ في فلسطين لأجل المؤمنين مِن الملة اليهودية... ولا يُعلَم هل هذا الإنجيل هو الأول باعتبار زمن تأليفه... واختلف القول بخصوص لغة هذا الإنجيل الأصلية فذهب بعضهم إلى أنه كُتِب أولًا في

العبرانية أو السريانية التي كانت لغة فلسطين في تلك الأيام. وذهب آخرون إلى أنه كُتب في اليونانية كما هو الآن. أما الرأي الأول فمستند إلى شهادة الكنيسة القديمة. فإن آباء الكنيسة قالوا أنه تُرجِم إلى اليونانية ويستشهدون بهذه الترجمة فإذا سلمنا بهذا الرأي التزمنا بأن نسلم بأن متى نفسه ترجم انجيله أو أمر بترجمته وإذا سلمنا بذلك وجدنا ما يفسر لنا الاختلاف بين الآباء في زمن كتابة هذا الإنجيل إذ يكون مقصود من يقول بقدمية كتابته قدمية كتابة الانجيل الأصلي العبراني بينما يكون مقصود من يقول بتأخر زمان كتابته إنما هو تاخر زمن الترجمة المشار إليها. والذين يذهبون إلى الرأي الثاني يقولون أن شهادة الآباء غير كافية بل ومتضادة أحيانا ويقولون أن نمط التاليف لا يوافق كونه ترجمة... ولا بد أن هذا الإنجيل قد كُتب قبل خراب أورشليم وينبئ ص٢٤ بوقوع ذلك إلا أنه ظاهر من بعض الشواهد انه كُتب بعد الحوادث الوارد ذكرها فيه بمدةٍ من الزمان... وذهب بعض القدماء إلى أنه كُتب في السنة الثامنة بعد الصعود وآخرون إلى أنه كُتب في الخامسة عشرة فإذا سلمنا بوجود إنجيل عبرانيّ أصلي كان التاريخ الأول له. ويظن البعض أن إنجيلنا الحالي كُتب بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥م)[١]، ونكتفي بما نقلناه في شأن إنجيل متى عن رجل نصرانيّ يستشهد بهذا الإنجيل على بنوة المسيح التي تقتضي ألوهيته– عليه السلام– عندهم، وليس همنا في هذا النقل أن نتتبع إنجيل متى، فتتبعه يتطلب بحثًا مستقلًا، ولكن حسبنا ما تبين من جهالة علماء النصرانية وأقطابها لأصل هذا الإنجيل، و اللغة التي دُون بها وأيضًا التي تُرجِم إليها وجهالة

(١) راجع "قاموس الكتاب المقدس"، لـ "جورج بوست"، ج٢/ ص٣٠٩، ٣١٠ باختصار.

المترجِم وهي في حد ذاتها مصيبة لا يمكن للباحث أن يغض الطرف عنها، يقول الشيخ محمد أبو زهرة عن إنجيل متى:(لا شك أن جهل تاريخ التدوين، وجهل النسخة الأصلية التي كانت بالعبرية، وجهل المترجم وحاله من صلاح او غيره، وعلم بالدين واللغتين التي ترجم عنها والتي ترجم إليها، كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التدوين، وتاريخ الترجمة وملابساتها ليمنعه العلم من الاسترسال في التسامح، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذي ترجم، فلقد أردنا أن نعرف ذلك الأصل، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل، أم فيها انحراف، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو بإشاراته، أم بلحن القول وتلويحاته أم بروح المؤلف وغرضه، ومرماه الكلي من الكلام. ولكن عز علينا العلم بالأصل، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم، وأنه ثبت ثقة أمين في النقل، عالم لا يتزيد على العلماء فقيه في المسيحية حجة فيها، عارف للغتين فاهم لهما، مجيد في التعبير بهما، فعندئذ كنا نقول: ثقة روى عن ثقة بترجمته، ونسد الخلة بتلك الرواية، ونرأب الثلمة بتلك النظرة، ولكن قد امتنع هذا أيضًا، فقال جمهرة علمائهم:إن المترجم لم يُعرَف، فبقيت الثلمة من غير ما يرأبها)[1] فهل يمكن لفردٍ بعد هذا النقد أن يستشهد بإنجيل متى في أمرٍ من أخطر أمور النصرانية؟!

أمّا عن إنجيل يوحنا فحدّث ولا حرج، ولن نذهب بعيدًا عن جورج

(١) راجع "محاضرات في النصرانية"، ص٤٢.

بوست وعن قاموسه الذي يقول فيه عن إنجيل يوحنا:(ويُظَن أنه كُتب في أفسس بين سنة ٧٠ و ٩٥م وكان مقصده الخصوصي إقناع الناس بأن يسوع هو المسيح ابن الله وبأن الذي يؤمن به يحيا)[١]، وننقل نقد الشيخ محمد أبو زهرة الدقيق على هذا الإنجيل حيث يقول:(العلماء بالمسيحية في القرن الثاني الميلادي أنكروا نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري، وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة، ولو كانت صحيحة لعلم بذلك حتمًا تلميذه بوليكارب، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس، ولأعلن هذا تلك النسبة عندما شاع إنكارها. ولقد قال أستادلين في العصور المتأخرة: إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة لوجين في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا، ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه:" أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور اراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما ببعض وهما القديسان يوحنا ومتى... ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابط بينها وبين مَن نُسبت إليه... " هذا قول بعض الباحثين من كُتّابهم... ولقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوين هذا الإنجيل خلافًا بينًا. فالدكتور بوست يرجح أنه كُتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ أو سنة ٩٦، ويقول هورن في تاريخ تدوين ذلك الإنجيل" أُلف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد"... من هذه

(١) راجع "قاموس الكتاب المقدس"، ص ٥٤٧.

النقول يُستفاد أنّ كُتّاب النصارى يُجمعون أو يكادون على أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا كُتب لإثبات ألوهية المسيح التي اختلفوا في شأنها لعدم وجود نص في الأناجيل الثلاثة يعلنها. وهنا لا يسع القارئ لتلك النقول إلا أن يستنبط أمرين:(أحدهما) صريح وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على الوهية المسيح، أو هي كانت كذلك قبل تدوين الإنجيل الرابع على الأقل، وهذه حقيقة يجب تسجيلها، وهي أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرنٍ من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح، (وثانيهما) أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليها، ويصرح بها... وهذا يُنبئ عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص في الكتب عليه)[١]، وهذا أبلغ رد على استدلال النصارى على بنوة المسيح المقتضية ألوهيته عندهم مِن إنجيلي متى ويوحنا.

وخامس الوقفات مع تعبير "أبانا" و "أبي": فمن الطبيعيّ أن يخاطب الجمعُ ربهم بقولهم ربنا، وإلا لكان قولهم جميعًا ربي ضرب من الهذيان، ومِن الطبيعي كذلك أن يخاطب الفرد ربه بقوله "ربي"، وادعاء جورج بوست بأنّ (المسيحَ يأمرنا بأن ندعو الله "أبانا" فهو لا يدعوهُ كذلك إنما يدعوهُ "أبي" وذلك إيماءٌ لما هنالك من الألفة العظيمة والعلاقة الشديدة الكائنة بينهما مما تفوق علاقته كل علاقة بشريّة)، فإنّ هذا الادعاء محض افتراءٍ وتضليلٍ منه أو جهلٍ بكتابه الذي يقدسه ويؤمن به! فقد جزمت المزامير التي يؤمن بها النصارى ويتعبدون بها في صلواتهم أنّ

(١) راجع "محاضرات في النصرانية"، ص٤٦ وما بعدها باختصار.

داود– عليه السلام– خاطب الله بقوله"أبي" لا "أبانا"، جاء في المزامير عن داود:(هو يدعوني: أبي أنت، إلهي وصخرةُ خلاصي)[١]، فداود يدعو ربه "أبي" وليس "أبانا"، وهذا يعني أنّ تعبير "أبي" و"أبانا" لا علاقة له بالتفخيم والتبجيل وإنما باللغة وأحكامها.

وسادسها: مع قوله: (والمسيح هو ابن الله الأزليّ والابن الوحيد)، وهذه البنوة عندهم قائمة على أنّ المسيح مولود من الآب، وأن الآب علة لوجود المسيح– كما ينص قانون الإيمان عندهم– ويلزم من ذلك تقدُم الوالد ذاتًا ووجودًا على الابن تقدمًا زمنيًا لكونه سبب خلقه ووجوده! ويلزم منه أيضًا وجود المسيح مع ذات الخالق وجودًا أزليًا قديمًا! وبما أنه مع ذات الخالق وجودًا أزليًا قديمًا لزم أن يكونَ إلهًا ثانيًا شريكًا في الخلق والأمر! ولزم أيضًا احتياج الله لهذا الابن الأزليّ المزعوم حيث إنهم يؤمنون أنّ الذات الإلهية لا تقوم إلا بهذا الأزلي وبروح القدس، مما يلزم معه افتقار الذات الإلهية للابن ولروح القدس! والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف كانت الذات الإلهية قبل وجود هذا الابن؟! وكيف كانت عندما كان في بطن مريم؟! وكيف كانت عندما كان طفلًا صغيرًا؟! وكيف كانت عندما كان نائمًا؟! وكيف كانت عندما صُلب ومات وقُبِر– بزعمهم–؟! أيعجز الإله عن القيام بذاته مع ما هو معلوم مِن أن كل مُفتَقِرٍ لغيرِه قطعًا لا يكونُ إلهًا؟!

(١) المزمور ٨٩: ٢٦.

وهكذا يتبين لنا جليّاً أن لفظة الابن يستحيل حملها على المعنى الحقيقيّ بل المجازي والذي لا يعدو أن يكون الموصوف به رجلاً صالحاً باراً، حيث إنه (لا يصح أن يكون لفظ الابن بمعناه الحقيقيّ (لأنه يطلق على الذي تولد من نطفة الأبوين) فلا بد من الحمل على المعنى المجازي المناسب لشأن المسيح، وقد عُلم من الإنجيل أن هذا اللفظ في حقه بمعنى الصالح. ومما يؤيد هذا ما ورد في إنجيل مرقس:" ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال: حقاً كان هذا الإنسان ابن الله". وقد نقل لوقا قول القائد هكذا:(بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا). ففي إنجيل مرقس لفظ (ابن الله) وفي إنجيل لوقا بدله لفظ (البار) فعُلم بنص الإنجيل أن المراد بلفظ (ابن الله) البار الصالح)[١].

ويحسن بنا بعد أن اتضح لنا مفهوم الأبوة والبنوة عند النصارى وحقيقتها في الأناجيل أن نختم برؤية المسيح– عليه السلام– للأبوة والبنوة بحسب ما أوردته الأناجيل؛ لنرى هل كان المسيح يرى في هذه التعبيرات ومشتقاتها شيئًا زائدًا على البشرية والنبوة والرسالة أم لا؟

(١) راجع "التثليث بين الوثنية والمسيحية"، ص٣٤.

المطلب الثالث
موقف المسيح في الأناجيل من الأبوة والبنوة.

لم يجد المسيح– عليه السلام– حرجًا في استخدام مصطلحات "أبناء الله" و"أبي وأبيكم" و "أبناء أبيكم" و "أبوكم السماويّ" وغيرها من المصطلحات التي قد يُفهَم من ظاهرها وجود علاقةٍ حقيقةٍ بين الله وبين بعض المخلوقات مع أنّ العقل يأبى ذلك ومع أنّ أسفار اليهود اعتادت على ذِكر مثل هذه المصطلحات دون حرجٍ أو غضاضة، حيث لم تجد أسفار اليهود مَن يُؤلّه إسرائيل أو داود أو سليمان أو غيرهم ممن وصفتهم بهذه الألقاب، سواء أكان المعنِيّ بذلك سلالة إسرائيل عمومًا[١] أو بعض الأشخاص على وجه التحديد[٢]، والعجيب أنّ بني إسرائيل لم يُترجموا هذه البنوة كما ترجمها النصارى مع حرص اليهود الشديد على التعالي على سائر البشر واعتبار غيرهم في مرتبةٍ دون البشرية، ونظرهم إلى أنفسهم على أنهم شعب الله المُختار، ومع كل هذا لم تذهب عقولهم قط إلى ما ذهبت إليه عقول النصارى من وجود علاقةٍ خاصةٍ بينهم وبين الله – عز وجل–.

أمّا عن المسيح– عليه السلام– فإنّ البحث برمته يتناول حديثه عن نفسه في الأناجيل، وأدق ما تحدّث فيه المسيح عن نفسه هو مصطلح البنوة والأبوة

---

(١) راجع: سفر الخروج ٤: ٢٢– ٢٣، و المزمور ٨٩: ١٩– ٢٧، وسفر إرميا ٣١: ٩، وسفر التثنية ١٤: ١، وسفر إشعياء ١: ٢، و٣٠: ١، و٦٣: ٨، وسفر هوشع ١: ١٠.

(٢) كداود مثلًا كما جاء في المزمور ٨٩: ٢٦، و إفرام كما في سفر إرميا ٣١: ٩ وغيرهما.

ومدى نسبتهما إليه، والمتتبع لهذين المصطلحَين ومشتقاتهما في الأناجيل على لسان المسيح يجد أنّهما لا ينطبقان مُطلقًا على ما فهمه النصارى من وجود علاقةٍ خاصّة بين الله وبين المسيح يرتفع المسيح من خلالها فوق مرتبة النبوة والرسالة والبشرية ليصل إلى مرتبة مشاركة الله في الألوهية، بل إنّ ذِكر المسيح لهذه المصطلحات لا يزيد عمّا أقرته أسفار اليهود وعمّا فهمه الناس قبل وجود المسيح وعلى عهده مِن أنّ هذه المصطلحات إنما يُراد بها كون الموصوف بها من الصالحين، ويُراد بها أيضاً محبة الله للعبد وشفقته عليه وتزكيته له عندما يلتزم هذا العبد بأوامر الله، وهذا ما التزم المسيح ببيانه في الأناجيل، ولو كان في الأمر مزيدًا على ذلك لما أخفاه المسيح إذ أن تأخير البيان عن وقت الحاجة إنما هو من أخلاق المخادعين الضالين وحاشاه- عليه السلام- من ذلك، وها هو إنجيل متى ينسب إلى المسيح قوله:(وأمّا أنا فأقولُ لكم: أحِبوا أعداءكم. بارِكوا لاعنيكم. أحسِنوا إلى مُبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يُسيئونَ إليكم ويطردونَكم، لكي تكونوا أبناءَ أبيكُم الذي في السماوات)[(١)]، فالمسيح يُخاطب المدعوين بحُسن الخُلق وبالإحسان إلى المسيئين، فهل لو فعلوا ذلك وأصبحوا أبناء أبيهم كانوا مُشاركين لأبيهم في الألوهية؟! وهل قصد المسيح شيئًا من ذلك؟! وقال لهم في نفس الموعظة:(فكونوا أنتم كاملينَ كما أنّ أباكم الذي في السماواتِ هُو كامِلٌ)[(٢)]، فهل لوكانوا كاملين كما وجههم المسيح وكما طلب منهم كانوا مُشاركين لله في الألوهية؟! أو كان بهم جزءٌ من

(١) مت ٥: ٤٤- ٤٥.
(٢) مت ٥: ٤٨.

الألوهية؟! وهل قصد المسيح شيئًا من ذلك؟! وفي نفس الموعظةِ أيضًا ينسب متى إلى المسيح قوله:(احترزوا مِن أن تصنعوا صدقتكم قُدّامَ النّاسِ لكي ينظـــروكم، وإلا فليس لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السماوات)[١]، فهل لو أدّوا صدقاتهم في الخفاء يكون أجرهم عند الله أن يشركهم معه في ألوهيته؟ كيف وهم يتعبدون لله بصدقاتهم كما كان يتعبد المسيح لربه؟! وفي ختام موعظة الصدقة يقـــول المســـيح موضحًا معنى البنوة والأبوة:(لكي تكونَ صدقتُكَ في الخفاءِ. فأبوكَ الذي يرى في الخفاءِ هو يُجازِيكَ عَلانيةً)[٢].

ومِن الصدقة إلى الصلاة يوجّه المسيح أتباعه لكي يكونوا أهـــل صـــلاحٍ وتقوى وقُربى إلى الله مُختارًا للمُصلي مصطلح "أبيك"، وللمُصلين "أباكم" يقـــول متى على لسان المسيح:(وأمّا أنت فمتى صليتَ فادخُل إلى مِخدَعِكَ وأغلق بابك، وصلّ إلى أبيكَ الذي في الخفاءِ. فأبوكَ الذي يرى في الخفـــاءِ يُجَازيـــكَ علانيـــةً. وحينما تُصلّونَ لا تُكرروا الكلامَ باطِلًا كالأمم، فإنهم يظنُونَ أنّه بكثرة كلامهـــم يُستَجابُ لهم. فلا تتشبهُوا بهم. لأنّ أباكم يعلمُ ما تحتاجونَ إليه قبل أن تســـألوهُ. "فصلُوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك. ليـــأتِ ملكوتـــك. لتكن مشيئتك كما في السماءِ كذلك على الأرض.خُبزنا كفافَنَا أعطِنـــا اليـــومَ. واغفِر لنا ذنوبنا كما نغفِرُ نحنُ أيضًا للمذنبينَ إلينا. ولا تُدخلنَا في تجربةٍ، لكن نجّنا من الشرير.لأنّ لك المُلك، والقُوّةَ، والمَجدَ، إلى الأبدِ. آمين. فإنّه إن غفرتُم للنّاسِ

(١) مت ٦: ١.
(٢) مت ٦: ٤.

زلاتهم، يغفِر لكم أيضًا أبُوكُم السماوِيُّ. وإن لم تغفروا للنّاسِ زلّاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم)[١]، هذه هي الصلاة التي تقول الأناجيل أنّ المسيح علّمها النصارى، وهم لا يزالون يتعبدون بها إلى الآن، وهي شاهدٌ حيٌّ على بُطلان مُعتقدهم في المسيح- عليه السلام- فهل لو أتقن المسيحيّون صلاتهم كما علّمهم المسيح تكون مكافأتهم أن يشتركوا مع خالقهم في الألوهية؟! أليسوا يُناجون ربهم بقولهم "أبانا الذي في السماوات"؟! ثمّ ينقل المسيح موعظته من الصلاة إلى الصوم فيقول متى على لسانه:(وأمّا أنت فمتى صُمتَ فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للنّاسِ صائمًا، بل لأبيك الذي في الخفاءِ، فأبوكَ الذي يرى في الخفاءِ يُجازيكَ علانيةً)[٢]، ومِن العبادات ينقل المسيح موعظته إلى الإيمان بالرزق، فيقول متى على لسان المسيح:(فلا تهتموا قائلينَ: ماذا نأكلُ؟ أو ماذا نشربُ؟ أو ماذا نلبس؟ فإنّ هذه كلها تطلبها الأمم. لأنّ أباكُمُ السماويّ يعلمُ أنّكم تحتاجونَ إلى هذهِ كُلِّها)[٣]، وهكذا ركز المسيح على استبعاد مفهوم البنوة والأبوة الحقيقية مِن خلال ركائز رئيسية في الدين: الإيمان واليقينُ بالله والصلاة والصوم والصدقة.

أمّا عن قول المسيح عن ربه وخالقه "أبي" في الأناجيل فإن هذه الأقوال ليس فيها ما يُفهَم منه معنى مختلفًا عن سائر معاني الأبوة والبنوة التي تعني الرحمة والشفقة وعلو المنزلة، بل إنّ فيها ما يقطع ببشرية المسيح وحُسن تعبده لله رب

(١) مت ٦: ٦- ١٥.
(٢) مت ٦: ١٧- ١٨.
(٣) مت ٦: ٣١- ٣٢.

العالمين! جاء في إنجيل متى على لسان المسيح:(لأنّ مَن يصنعُ مشيئةَ أبي الـذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي)[١]، فها هو المسيح وهو يقول "أبي" يتـبرأ مـن مشيئته إلى مشيئة الله، ويضع نفسه في مصاف البشر باعتباره لمن يُطيع الله أخًا لـه ومَن تطيع الله أختًا له فإن كبر سنها فهي أمه، ولم يضع نفسه في مرتبةٍ أعلى مـن مرتبة المؤمنين! ونقل عنه متى أيضًا قوله:(كُل شيءٍ قد دُفِعَ إليّ مـن أبي، ولـيس أحد يعرفُ الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومَـن أراد الابـن أن يعلن له)[٢]، فكل شيءٍ ناله المسيح إنما هو من الله وليس للمسيح دخلٌ فيه، ومِـن الطبيعيّ أن يكون رب العالمين هو الأعلم بالمسيح فهو الأعلم بكل شـيء، ومـن الطبيعيّ أيضًا أن يكون المسيح هو أشد الناس معرفةً بربه، ونقل متى أيضًـا عـن المسيح قوله:(كُل غرسٍ لم يغرسه أبي السماويّ يُقلَع)[٣]، وهنا يستخدم المسـيح مصطلح "أبي" ومع ذلك يخرج من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ليعلم القـارئ أن المسيح ليس له من الأمر شيء وأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًـا ولا ضـرًا، وأثبت متى جواب التلاميذ حينما سألهم المسيح عن رؤيتهم له فقـال:(فأجـابَ سِمعانُ بُطرُس وقالَ:" أنتَ هو المسِيحُ ابنُ اللهِ الحيّ!" فأجابَ يسوعُ وقال لـه:" طوبَى لك يا سِمعانُ بن يُونَا، إنّ لحمًا ودمًا لم يُعلِـن لـكَ، لكـنّ أبي الـذي في

(١) مت ١٢: ٥٠.
(٢) مت ١١: ٢٧، وراجع أيضًا لو١٠: ٢٢.
(٣) مت ١٥: ١٣.

السماوات.)[١]، فإقرار بطرس للمسيح بالبنوة إنما هو إقرار مُجرّد لا زيادة فيه، وكذا قول المسيح "أبي" في هذا الموضع وفي سائر المواضع، ينقل متى عن المسيح قوله:(انظروا، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصّغارِ، لأني أقولُ لكم: إنّ ملائكتهم في السماواتِ كُلِّ حينٍ ينظرونَ وجهَ أبي الذي في السماواتِ)[٢]، وقوله للتلاميذ:(وأقولُ لكم أيضًا: إن اتفقَ اثنانِ منكُم على الأرضِ في أي شيءٍ يطلُبانهِ فإنّه يكونُ لهما مِن قِبَل أبي الذي في السماواتِ)[٣]، وقوله لهم أيضًا:(فهكذا أبي السماويّ يفعلُ بكم إن لم تَترُكُوا مِن قلوبِكم كُلُ واحِدٍ لأخيهِ زلاتِهِ)[٤]، وقوله لاثنين منهما:(فقال لهُمَا:" أمّا كأسي فتشربانها، وبالصبغةِ التي أصطبغُ بها أنا تصطبِغَانِ. وأمّا الجلوسُ عن يميني وعن يساري فليسَ لي أن أُعطِيَهُ إلا للذين أُعِدّ لهُم مِن أبي")[٥]، وفي هذه النصوص يتبرأ المسيح دومًا مِن حوله وقوته وقدرته إلى حول الله وقوته.

وقد كثُر استخدام المسيح لمصطلحاتٍ مِن قبيل "أبي" و"أبتاه" في مواطن لا تدل إلا على عبوديته لربه ونفي أي مترلةٍ فوق مترلة النبوة والعبودية المحضة لله رب العالمين، فحينما تحدّث المسيح عن يوم القيامة وعلاماته لم يجد حرجًا في أن

(١) مت ١٦: ١٦- ١٧.
(٢) مت ١٨: ١٠.
(٣) مت ١٨: ١٩.
(٤) مت ١٨: ٣٥، و راجع : مر١١: ٢٥- ٢٦.
(٥) مت ٢٠: ٢٣.

ينفي عن نفسه العِلم بموعد قيام الساعة وأن يُثبت هـذا العِلـم لله وحـده وأن يستخدم تعبير "أبي" في إشارةٍ واضحةٍ إلى أنّ الأبوة لا يُراد بها أي صفة للمسـيح ترتفعُ به إلى مقام الألوهية، ولو كان الأمر كذلك لما نفى عن نفسه العلـم بقيـام الساعة ولشارك المسيح ربه في العِلم بموعد القيامة، وحينما ذكرت الأناجيل جانبًا من عبادته لله في آخر لحظات حياته قالت:(ثمّ تقدّم قليلًا وخرّ على وجهِهِ، وكـانَ يُصلّي قائلًا:" يا أبتاهُ، إن أمكنَ فلتَعبُر عنّي هذه الكأسُ، ولكن ليس كما أُريدُ أنا بل كما تُريدُ أنتَ")[1]، فقد استخدم تعبير "يا أبتاه" مع هذا التعبد لله ليتضـح أنّ المراد بهذا التعبير وأمثاله ليس ألوهية ولا أقنومًا ولا غيرهما وإنمـا مـا درجـت الأناجيل على قصده في شأن سائر الشخصيات.

وأبلغُ ردٍ من المسيح على سوء فهم النصارى للأبوة والبنوة وسوء تأويلهم لها وبُطلان اعتقادهم المبني على أساسها هو ما نقله متى في إنجيله على لسان المسيح حيث قال:(وإذا واحِدٌ تقدّمَ وقالَ لهُ:" أيُّها المُعلّمُ الصّالِحُ، أيَّ صـلاحٍ أعمَـلُ لتكونَ لِيَ الحياةُ الأبديّةُ؟" فقالَ له:" لماذا تدعوني صالِحًا؟ ليسَ أحـدٌ صـالِحًا إلا واحِدٌ وهُوَ اللهُ. ولكِن إن أردتَ أن تدخُلَ الحياةَ فاحفظِ الوصايا". قال لهُ:" أيّـةَ الوصايَا؟" فقال يسُوعُ: "لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرِق. لا تشهَد بالزورِ. أكرِم أباكَ وأُمّك، وأحِبّ قريبَك كنفسكَ" قال له الشّابُ:" هذه كُلُهَا حفِظتُها مُنذُ حداثتِي. فماذا يُعوِزُنِي بعدُ؟". قالَ له يسوعُ:" إن أردتَ أن تكونَ كاملًـا فاذهَـب وبِـع

(١) مت ٢٦: ٣٩، وراجع مر١٤: ٣٦.

أملاكَكَ وأعطِ الفُقراءَ، فيكونَ لك كنزٌ في السماءِ، وتعالَ اتبعني". فلمّا سمِعَ الشابُ الكلمةَ مضى حزينًا، لأنّه كانَ ذا أموالٍ كثيرةٍ)[1]، فها هو شابٌ غنيٌ يسأل المسيح عن طريق الصلاح ويصف المسيحَ بالصالح، فيرفض المسيح هذا اللقب وينسبُ الصلاح لله وحده، في إشارةٍ واضحةٍ إلى الوحدانية التي هي الركيزة الأولى والأهمّ للصلاح، ثمّ يبدأ المسيحُ في بيان طريق الصلاح بحفظ الوصايا والتخلُص مِن ملذات الدنيا، ولم يجعل المسيح شيئًا مما يتوهمه النصارى مِن خرافاتٍ في طريق الصلاح، ولم يقل للسائل: إنّ مِن أهم أدوات الصلاح وشروطه أن تؤمن بأنني الأقنوم الثاني المتولد من الآب! (والقارئ للأناجيل الأربعة لا يجد للمسيح كلاماً يدل على أنه ابن الله بنوة حقيقية، كما لا يجد فيها أيضاً أن المسيح أطلق على نفسه كلمة "ابن الله" ولكن الوارد في الأناجيل الأربعة على لسانه قوله"أبي" و"أيها الأب" و"الابن" و"الآب". وأما ما ورد في الأناجيل من إطلاق كلمة "ابن الله" على المسيح، فقد جاءت على ألسنة الناس الذين أطلقوها عليه، إما على طريقة الاستفهام، كقول رئيس الكهنة له:"هل أنت المسيح ابن الله"؟ وإما على سبيل التهكم كقول الشيطان له:" إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل". ومما يدلل على أن هذا اللقب لم يطلقه المسيح على نفسه، رده على رئيس الكهنة حينما سأله هل أنت المسيح ابن الله، بقوله:" أنت قلت" ورده على السائلين الآخرين بقوله:" أنتم تقولون إني أنا هو" ومعنى هذا أن بنوة المسيح لله

(١) مت ١٩: ١٦- ٢٢.

أمر قاله الناس عنه فقط، ولم يكن ذلك صادر عنه)[١]، فلم يثبت في الأناجيل ولا في غيرها أن ورد على لسان المسيح أنه ادّعى أنّه ابن الله الوحيد، ولا أنّ الأبـــوة والبنوة تعني علاقةً خاصّة بينه وبين بارئه – جل وعلا– بل هذا ما فهمه النصارى وما أرادوه في عقيدتهم أمّا المسيح عيسى بن مريم– عليه السلام– فقد اتضح مـــن استخدامه لهذه المصطلحات أنّه براء مِن ذلك.

(١) راجع " التثليث بين الوثنية والمسيحية"، ص٣٦، ٣٧.

الخاتمة

أ ـ نتائج البحث

بعد هذه الدراسة المُوجزة لحديث المسيح – عليه السلام– عن نفسه في الأناجيل خرج البحث بالكثير مِن النتائج التي كان مِن أهمها:

١– أنّ الأناجيل نقلت كثيرًا مِن أحوال المسيح على لسانه هو لا نقلًا عن غيره، وأنّ النّصارى قد أضفوا هالةً مِن القداسةِ على أقواله المُتعلقة بالبنوة والأبوة، بينما غضّوا الطرف عن سائر أقواله الأخرى المُبيّنة لطبيعته التي خلقه الله عليها والكاشفة لحقيقة بعثته –عليه السلام–.

٢– كان مِن أهم ما ركّز عليه المسيح– عليه السلام– عند حديثه في الأناجيل عن دعوته ورسالته التي ابتعثه الله لأجلها أن وضّح أنه نبيٌ ورسول أرسله ربه وخالقه لِيُعلّم بني إسرائيل طريق الله – عز وجل– ويهديهم إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

٣– في خضم الدعوة العظيمة التي تحمّلها المسيح قارن– عليه السلام– نفسه دومًا بالأنبياء، وأظهر أنّه عبد لله يتعبد لربه، وأنه يحفظ وصايا الله التي ذكرها أسفار اليهود وأنّه ما جاء لينقضها بل لِيُتمّها ويُكمّلها ويُنفذها، وأنه في طريق دعوته ما كان يُربي أنبياء وسَفَرة– وإن اعتبرهم الأناجيل كذلك– بل تلاميذ، وأنه –عليه السلام– وفي طريق دعوته أيضًا كان يشفي المرضى بإذن الله– عز وجل– لا مِن تلقاء نفسه.

٤– لم يكن حديث المسيح عن نفسه في الأناجيل بعيدًا ولا متناقِضًا مع حديثه

عن دعوته ورسالته، بل نص المسيح في الأناجيل على أنه إنسان وابن إنسان ولم يقل أنّ به شيئًا مِن الألوهية، ولم يرد على لسانه في الأناجيل كلمة "أقنوم" أو"لاهوت" أو "ناسوت" أو غيرها مما انحرفت إليه النصرانية، ومما تأولته مِن حديثٍ مُعتادٍ في الأناجيل عن الأبوة والبنوة.

٥- قطع المسيح-عليه السلام- في الأناجيل أنه لا يعلم الغيب وإن أتى ببعض المعجزات، بل كان -عليه السلام- يحرص عند إتيانه بالمعجزات أن يؤكد مع كل مُعجزةٍ أنّه مجرد إنسان وابن إنسان، وينفي عن نفسه عِلم قيام الساعة نفيًا تامًّا.

٦- لم يستنكف المسيح أن ينصّ في الأناجيل على أنه بشر صاحب بشريةٍ محضةٍ يعتريه مِن خلالها ما يعتري غيره مِن أحوال البشر مِن نومٍ وجوعٍ وعطشٍ وأكلٍ وتعبُدٍ لله وتذللٍ له - سبحانه- وقلقٍ واضطرابٍ واحتياج للغير وافتقار للناس وأنّه كان يُوحَى إليه ويمشي ويمرض ويتكلم، بل وكان كلامه وأفعاله يُصيبان المخاطَبين دومًا بالدهشةِ والتعجب، ولو كان يدّعي الألوهية لنفسه أو ينظر إليه معاصروه على أنّه جزء مِن إله لما وقع منهم العجب والدهشة.

٧- كان مِن أدق ما ورد في الأناجيل على لسان المسيح كلامه عن الأبوة والبنوة والذي أوّله النصارى بأنّه حديث عن ألوهيته وأقنوميته، وبالتالي شيّدوا أركان ديانتهم على أساس هذه التأويلات وتلك الإشارات، تاركين صريح الكلام إلى ما به غموضٌ، مما حدى بالنصرانية إلى وجود

الخلافات العقدية والجوهرية بينهم، وهذا واضح من كثرة مجامعهم وقرارات الحرمان والتكفير عندهم.

٨- إنّ مصطلحات البنوة والأبوة وما اشتُق منهما في الأناجيل لم تكن لتتحمل شيئًا مِن تأويلات النّصارى لها، وما كان استخدام هذه المصطلحات في شأن المسيح يختلف عن استخدامها في شأن غيره، بل كان استخدام المسيح لها يُبرهنُ على ذلك، على أنّها إنما يُراد بها محبة الله للعبد- كائنًا مَن كان هذا العبد ولو طفلًا- عندما يلتزم هذا العبد بوصايا الله، وهذا ما أخذ المسيح على عاتقه بيانه وتوضيحه في كل موضعٍ في الأناجيل، ولو كان في الأمر مزيدًا على ذلك لما أخفاه المسيح وهو يعلمُ أنّ إخفاء أمرٍ كهذا يُناقض أصول دعوته وحِرصه على هداية المدعُوين، بل إنّ إبداء أمرٍ كهذا والنّص الصريح عليه يقطع الطريق على التأويلات والخلافات والانقسامات، وهذا يؤكد على أنّ المسيح ما تحدّث عن أبوّة إلهية ولا بنوةٍ لاهوتيةٍ، بل نبوةٍ واضحة وعبوديةٍ خالصةٍ لله رب العالمين.

ب ـ أهم المراجع

- إظهار الحق، لـ"رحمت الله بن خليل الرحمن الهنديّ"، تحقيق" محمد أحمد عبد القادر خليل ملكاويّ"، الطبعة الأولى، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميّة، المملكة العربية السعوديّة، ١٤١٥هـ.

- التثليث بين الوثنية والمسيحية، لـ "محمود علي حماية"، الناشر: مكتبة الإيمان، العجوزة– مصر٢٠٠٩م.

- سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان، لـ "نوفل بن نعمة الله بن جرجس"، طبعة بيروت ١٨٧٦م.

- الفارق بين المخلوق والخالق، لـ "عبد الرحمن الباجه جي زاده"، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة النافذة، الجيزة– مصر ٢٠٠٦م.

- قاموس الكتاب المقدس، لـ "جورج بوست"، طبعة المطبعة الأمريكانية– بيروت ١٨٩٤م.

- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار الثالث، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م.

- محاضرات في النصرانية، لـ" محمد أبو زهرة"، الطبعة الثالثة، الناشر: دار الفكر العربي، مدينة نصر– القاهرة، ١٣٨١هـ– ١٩٦١م.

- المختار في الرد على النصارى، لـ "عمرو بن بحر الجاحظ"، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

- المسيحية. نشأتها وتطورها، لـ "شارل جنيبير"، ترجمة وتعليق الإمام الأكبر"عبد الحليم محمود"، طبعة المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، بدون تاريخ.

- الميزان في مقارنة الأديان، لـ "محمد عزت الطهطاوي"، الطبعة الأولى، الناشر: دار القلم- دمشق و الدار الشامية ببيروت ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.